أنوار من القرآن الكريم

قبس من سورة الحجرات

الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م

أنوار من القرآن الكريم

قبس من سورة الحجرات

تأليف

محمد بن ناصر بوحجام

الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .. والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فمن نعم الله على عباده المؤمنين توفيقهم إلى الإيمان ، وهدايتهم لترسيخ هذا الإيمان في قلوبهم ، والتكرم عليهم بحسن عبادته ، والإخلاص فيها .

من أنواع هذه العبادة التدبر في آيات الله الكونية ، والآيات القرآنية التي منها يتعلمون دينهم ، ويتفهمون فيه ، فيعرفون أحكام الله تعالى ليعبدوه عن علم ، ويسيروا على هَدْي منه في الحياة الدنيا التي يرجون أن تكون مطيّتهم إلى الآخرة .

ما أحوجنا وأحوج شبابنا ـــ بخاصة ـــ إلى النهل من منهل القرآن والتداوي به لشفاء ما بهم من أسقام وأمراض ، ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاَّ خسارا﴾ .

في محاولتنا هذه اجتهدنا في تقديم نموذج من الاستفادة من القرآن لطلبتنا وناشئتنا ، بما يعينهم على السَّيْر في هذا السبيل ، والإقدام على هذه الموائد القرآنية ، ليأخذوا منها ما يوجه حياتهم ، ويربّيهم على الإسلام والإيمان ، فهم في أمسّ الحاجة إلى التوجيه والتذكير .

إن «**سورة الحجرات**» التي اخترناها نموذجاً لذلك ، عنيت بترسيخ الإيمان في القلب ، وتعليم الآداب العامة في المعاملة والمعاشرة ، وتقديم القواعد الأساسية لبناء المجتمع .

هذه السورة بهذه المعاني كفيلة ببناء النفوس ، وتكوين المؤمنين الأقوياء الذين يحملون الرسالة ويؤدونها بكل ثقة وجدارة واستحقاق .

للوصول إلى الغاية من التربية من خلال هذه السورة فإننا ركَّزنا على الجانب الاجتماعي كثيراً ، لأننا نراه الجانب الأكثر إهمالاً في حياتنا الحاضرة ، بسبب المتغيّرات التي حدثت في حياة المسلم .

أقدّم بين يدي هذا العمل ملاحظات تعين على فهم طبيعته .

١) حاولت الاختصار قدر الإمكان ، وقد تجنبت إيراد الأقوال الكثيرة التي وردت في المعنى الواحد أو في الآية الواحدة ، والتأويلات المختلفة في ذلك ، إذ لم يكن غرضي التفسير إنما كان استخراج المعاني وربطها بالواقع المعيش .

٢) بسَّطت الأسلوب واللغة قدر المستطاع ، ليتحقق لي الغرض من هذه المحاولة ، وهو إيصال المعلومات والأفكار إلى الطلبة والناشئة .

٣) اخترت لهذه المحاولة أسلوب الحوار ، وجوّ الأسرة والسمر ، لأنه أثبت نجاعته ، ثم من جهة أخرى لاحياء هذه الطريقة في البيوت التي غابت عنها ، وما زحزحتها سوى ليالي الجلوس

إلى التلفاز ، وجلسات إضاعة الوقت فيما لا يفيد ، ومستجدات المدنية التي أسهمت في تفكيك أواصر الأسرة . وقد حاولت أن أساير طبيعة جلسات السمر ، والأحاديث التي تدور فيها عادة . فكنت أترك الحديث يدور بطريقة عفوية وعادية ، متميزاً بتوارد الأفكار والخواطر ، بعيداً عن التركيز المفرط .

٤) أوليت عناية كبيرة لجانب المطالعة ، فأكثرت من إيراد المآثر : آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة ، وأشعار ، وأقوال العلماء والحكماء .. وغالباً ما كنت أجري ذلك على لسان الإبن والبنت ، لدعوة الشباب والطلبة إلى الاهتمام بالمطالعة والإكثار منها ، لأن القراءة الخارجية توسع أفق المعرفة .

٥) استعنت ببعض الكتب ، وبتحليلات بعض العلماء في إعداد هذا الكتاب ، من هؤلاء فضيلة الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض ــ رحمه الله ــ في تفسيره للقرآن الكريم .

٦) في سرد الآيات القرآنية اعتمدت على رواية ورش عن نافع .

وفقنا الله تعالى إلى ما يحبه ويرضاه ، ونفعنا بما تعلمناه وبما درسناه من الذكر الحكيم .. ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾ .. آمين يا رب العالمين .

القرارة : يوم الثلاثاء ١١ ربيع الأول ١٤١٣هـ

٨ سبتمبر ١٩٩٢ م

محمد بن قاسم ناصر بوحجام

طلب الأب من أفراد أسرته الاجتماع اليوم بعد العشاء للسمر معاً في سهرة للأسرة خاصة ، تطلّع الجميع لمعرفة السبب ، والدافع إلى هذا اللقاء ، لأنهم لم يتعوّدوا على ذلك ، تهامسوا ، لكنهم كلهم لم يصلوا إلى نتيجة ، ولا إلى معرفة السبب .

الليلــة الأولــى

حلّ الوقت الموعود ، وحضر الجميع في قاعة الاستقبال ، أخذ كل واحد مكانه في القاعة .
افتتح الأب الجلسة بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ثم قال : ربما تستغربون هذه الدعوة وهذا الاجتماع .

الأم : نعم . ماذا تغيَّر فيك أيها الزوج العزيز ؟
الابن : لماذا لا تتركنا نتفرج على التلفاز ، أو نلهو ببعض ما تعوّدنا عليه كل ليلة ؟
البنت : لا أرى ضرورة لهذه الجلسة ، فليس لنا ما نشغل به أنفسنا فيها ، لذا لم نتعوّد على محادثة أنفسنا ، أو مناقشة موضوعات تهمّ أسرتنا ، والسهرة تحلو بالسمر .
الأب : صُبِّي لنا الشاي أيتها الزوجة الصالحة ، وقدّمي لنا ما أعددتِه

من حلويات أولاً ، بعد ذلك نفتح باب الحوار والنقاش فيما ذكرتموه واستفسرتم عنه .

الأم : حسناً زوجي العزيز ، انعش روحك بهذه الرشفات ، حتى تقوى على الإجابة والإيضاح والتفسير .

الابن : سلمت يداك أماه وأبقاك الله لنا ذخراً ، فأنت دائماً في خدمتنا ، ساهرة على راحتنا .

البنت : وفّقني الله ، وألهمني الاقتداء بسيرتك في الاهتمام بالأسرة ، والعمل بتوجيهاتك ، حتى أكون بنتاً بارّة وامرأة صالحة تقوم بواجباتها أحسن قيام .

الأم : أحسنتما ولدَيَّ العزيزين ، أبقاكما الله دائماً بارّين بوالديكما ، حتى تنالا رضاهما ، وبعده رضا الله إن شاء الله . المهم أن يعجب أباكما ما أعددتُه له ولكما ، فيسرع في إجابتنا عن أسئلتنا ، ويخبرنا عن سبب اجتماعنا .

الأب : شكراً لكم على هذا الاهتمام ، وعلى هذه العناية ، وشكراً للأم على ما قدمته لنا مما يُحلِّي جلستنا ويزينها .

في الحقيقة فكّرت طويلاً في الحالة التي نعيشها ، والرتابة التي نسير عليها ، فلا لقاء ، ولا مناقشة ، ولا حوار يجمعنا ، فقلت : لماذا لا نجتمع ولو مرة بعد حين ؟ حتى نكسر هذه الرتابة القاتلة التي نحياها ، ونزيل هذا الحاجز الكبير الذي يفصل بيننا ، ونتعرف على أحوال بعضنا ؟

الابن : هذا شيء جميل ، ولكنّ المشكلة أنّ الوقت غير مناسب ، فالليل ساعة التفرّج على التلفاز ، والاجتماع فيه يحرمنا من مشاهدة الأفلام .

البنت : صدق أخي ، ما فائدة الاجتماع ؟ وبماذا سنملؤه ؟ فكل ما يمكن أن تقولَه نقرؤهُ في الكتب والمجلات والصحف ، ونسمعه في المذياع ، ونشاهده في التلفاز .

الأب : هذا هو الذي آلمني كثيراً ، وحزّ في نفسي ، هذا التفكير هو الذي أضاع لنا كثيراً من الواجبات ، وأهمل كثيراً من الأمور . وكان من الأسباب التي أحدثت في الأسرة فجوات ، فكانت العلاقة بين أفرادها فاترة ، وهو ما ينذر بخطر كبير ، ويهدّد باندثار الأسر وتفكك الأواصر .

الابن : أنا لم أشعر ، ولم أحسّ بهذا الإحساس الذي أبديته . أرى أنه لا داعي للتخوّف ، فنحن في أحسن حال ، حياتنا عادية لا ينقصها شيء .

البنت : أخي عنده حق ويستحسن التفاؤل ، ثم ما هذه الأمور والواجبات التي تفرض علينا الجلوس معاً في السهرة ؟ وتحتم علينا تغيير نظام حياتنا ؟

الأب : هذا هو ما كنت أخشاه ، وأتخوف منه . أن يجني علينا الابتعاد عن أنفسنا وعدم الالتقاء ، فيتشتّت تفكيرنا ، وتتباين رؤانا ، ويكون لكلٍّ طريقته ووجهته ، مما يسبب

آثاراً سلبية على علاقاتنا .

وأنا أعترف أن لي دوراً كبيراً في هذا الوضع ، إذ لم أنبّهكم إلى هذه الأخطار ولم أحاول جمعكم في جلسة واحدة . وكنت منشغلاً عنكم بنفسي وبأموري الدنيوية . وأنا الآن أشعر بالنّدم والحسرة . غفر الله لي إذ تركتكم أيتاماً ، وصدق أحمد شوقي حين قال :

إنّ اليتيم هو الذي تلقى له أمًّا تخلّت أو أبًا مشغولا

الأم : هوّن عليك أيها الزوج العزيز ، وخذ لك كأساً من الشاي تسرِّي به عن نفسك ، فالوقت لم يفت ، فبإمكانك ــ وقد تفطّنت إلى خطئك ــ أن تستدرك الأمر ، وتعوّض ما فات ، وتقوم بواجبك باعتبارك أباً ومسؤولاً عن الأسرة في التوجيه والتربية .

الابن : صحيح أنه لابد من اللقاء ، لكن لماذا في السهرة بالذات ؟ وما هو هذا الواجب الذي نقوم به ؟!

البنت : أبتاه ، أرجو أن تفصح لنا عن حقيقة ما تريد قوله ، وأن تريح أنفسنا . فقد طال انتظارنا ، ونفد صبرنا .

الأب : حسناً !! هناك أمور كثيرة أريد أن أطلعكم عليها مثل : تاريخ الأسرة ، حياة الأنبياء والرسل ، الصحابة أبطال الإسلام ، سير السلف ، التاريخ ، مناقشة بعض ما يهم مجتمعنا ..

الابن : (بعد أن غرق في تفكير طويل) تذكّرت الآن مقولة سمعتها مراراً : من لم يهتّم بأمور المسلمين فليس منهم أو منا . وكنت أظنّ أنها موجهة إلى المسؤولين وسراة القوم والوعاظ والمرشدين .. لكن الآن عرفت من كلامكم يا أبي أن ذلك من مسؤولياتنا جميعاً ، حتى ولو كنا صغاراً .

البنت : وأنا أيضاً قرأت لأحد المفكرين مقولة يقول فيها : «إذا جهلت أمة تاريخها فقد جهلت نفسها ، وإذا جهلت نفسها فقد جهلت مستقبلها وألقت بها في يد غيرها» ، وكنت أقول أن صاحب المقولة كان يهذي ولا يدري ما يقول ، أما الآن فقد عرفت وأدركت أن هذا من ضروريات ما يجب معرفته .

الأب : الحمد لله الذي هداكما إلى معرفة هذا الواجب عليكما ، ووفّقني إلى اقناعكما بما يجب القيام به .

الأم : الآن أرغب ــ ولذّي العزيزين ــ أن أصبّ لكما كأسين من الشاي ، إكراماً لكما على هذا الفهم الجيد لرسالتكما في الوجود .

الأب : حيّا الله أمّكما ، وبارك فيها على هذا العطف والشفقة والحنان نحوكما .

الابن : واحسرتاه على ما فرّطنا في جنبنا ، وفي واجباتنا !! كم هي تلك الليالي الضائعة ، التي قضيناها في الأمور التافهة

كالجلوس إلى التلفاز ، واللغو في الحديث ، واللّهو . بينما أحاديث هامّة كهذه التي شوّقنا إليها أبونا ، أهملناها تماماً ، إنها والله لخسارة كبيرة . غفر الله لنا هذا الخطأ .

البنت : حقاً إنه لأسف كبير أن تمرّ علينا كل هذه الأعوام ، ولا نتفطّن لهذا الخلل في حياتنا ، ولكن ــ والحقّ يقال ــ لكما أبي وأمي دور كبير في هذا .

الأب : لنطو هذه الصفحة ، ولنفتح صفحة جديدة . عسانا نكون قدوة لبقيّة الأسر ، حتى نؤدّي ما علينا نحو أنفسنا ونحو مجتمعنا .

ما رأيكم في أن نتّخذها سُنّة وعادة ، ونتعاهد على الاجتماع كلّ ليلة بعد العشاء ، بعد القيام بفروضكم المدرسية والمنزلية فنسمر معاً في أحاديث من هذا النوع .

الولدان : موافقان على ذلك ، ونعاهدكم على المواظبة .

الأم : هل تتقبلونني معكم سامرة ومستمعة ؟

الجميع : وجودك معنا ضروري : مفيدة ومستفيدة ، فالسهرة لا تحلو إلا باكتمال الجمع . ثم من يعدّ لنا الشاي ، ويقدّمه لنا ؟ نحن لا نرضى إلا بكِ في هذه المهمة وهذا الإكرام .

الأم : شكراً لكم على هذه الثّقة وعلى هذا التفضيل ، هيّا الآن إلى النّوم ، فالوقت قد تأخّر . وإلى اللقاء في الليلة القادمة إن شاء الله .. والسلام عليكم ورحمة الله .

الليلــة الثانيــة

سبق الولدان إلى قاعة الاستقبال ، بعد أن قاما بفروضهما المدرسية .

الأم : (تدخل وبين يديها صينية الشاي) أراكما قد هيّأتما أنفسكما للسهرة ، واستعددتما كامل الاستعداد .

البنت : كيف لا ! وأبونا قد شوّقنا إلى أحاديث هامة ، يتحفنا بها كل ليلة .

الابن : بل إن ساعات هذا اليوم مرّت بطيئة ، لشدّة انتظارنا لهذه الساعة السارّة .

الأب : (يدخل بعد ذلك) سمعت ما كنتم تقولونه قبل أن أدخل عليكم ، فسرّني ذلك غاية السرور ، بورك فيكم ، ومعذرة على هذا التأخر ، فقد كنت أعدّ لكم ما يمكن أن نشغل به جلستنا هذه ، ريثما تعدّ لنا أمكما ما نحلِّي به سهرتنا هذه .

الأم : هاكم كؤوس الشاي ، وهات ما أعددته أيتها الزوج الصالح .

الأب : قبل أن أقدّم إليكم ما أعددته ، أريد أن أعرض عليكم سؤالاً ، ربما كانت الإجابة عنه محور حديثنا هذه الليلة .
ما رأيكم في الأوضاع الاجتماعية الحالية ؟

الابن : ما فكّرتُ في هذا سابقاً ، ولا فيما يُشبهه من موضوعات ، لكنني أحاول الإجابة ما استطعت . باختصار شديد أَلْحَظُ

تغييراً كبيراً في العلاقات الاجتماعية .

البنت : فعلاً هذا ما يميز حياتنا الحالية .

الأب : ما سبب ذلك في رأيكم ؟

الابن : يبدو لي أن سبب ذلك هو الابتعاد عن شرع الله ، والتخلّي عن العمل بسنة رسول الله ﷺ .

البنت : وسبب الابتعاد عن ذلك هو قلّة اعتناء مناهجنا التعليمية ، ووسائلنا التربوية بالتوجيهات الإسلامية والتربية الدينية .

الأم : ربّما خالفتك الرأي بنيّتي العزيزة ، فدروس الوعظ والإرشاد قائمة في كل مسجد ودار ، ووسائل الإعلام تنشر وتبث أحاديث دينية في مناسبات عديدة ، ومناهج التعليم تخصّ المتعلمين بدروس في الأخلاق والتربية الإسلامية .. ألا يكفي هذا في التوجيه الديني ؟ يبدو لي أن الشباب هو الذي لا يهتّم بالتثقيف في دينه والتفقّه فيه .

البنت : قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن مع ذلك فانني مستمسكة برأيي .

الابن : مهما تكن الأسباب ، فإنَّا نرجو من أبينا الفصل في المسألة .

الأب : أحسنتم في هذه المناقشة الجادّة والمهمة . ولولا خوف الإطالة لتركتكم في هذا الحوار الشيّق . إن الأسباب التي أشرتم إليها كلها معقولة ، وعلى رأسها الابتعاد عن كتاب الله ، وعدم التأمّل والتدبّر في آياته .

الابن : هذا صحيح يا أبي ، إننا قرأنا كثيراً من السور في المدرسة ، لكنّنا في كثير من الأحيان كنّا نمرّ عليها دون التدبّر فيها بما تتّسع له مداركنا ، وبما يفيدنا في توجيه حياتنا ، وخاصة بعض السور والآيات التي تنمّي أخلاقنا ، وعلاقاتنا الإجتماعية .

الأب : حسناً يا بُنيّ ! فمادمتَ ذكرت أن العلاقات الاجتماعية متغيرة فإنّه آن أن أعرض عليكم ما أعددتُه لكم ، وهو سرد للمعاني التي وردت في (**سورة الحجرات**) ، ونحاول توضيحها معاً في هذه الجلسات لأنها اهتمت كثيراً ببناء المجتمع المسلم الفاضل ، وبالعلاقات الاجتماعية بين الناس .

البنت : هذه السورة التي تبدأ بقوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ .

الأب : أحسنت بنيّتي في هذا الاستذكار . ما رأيكم ــ قبل بيان تفصيلات هذه السورة ــ أن أذكّركم بالمحاور التي دارت حولها آياتها .

الجميع : هذا أفضل ما تفتتح به معنا هذه الأحاديث .

الأب : إنّ هذه السورة تضمّنت القواعد الأساسية لبناء المجتمع الإسلامي ، والآداب العامّة في العلاقات والمعاملات ، والحقائق المهمة في العقيدة والشريعة ، وحوت كثيراً من

مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، وحقائق عن الوجود والإنسانية .

الابن : حسبما ذكرتم أبي ، فإنّ هذه الكليات كفيلة ببناء المجتمع على أسس متينة ، وتنظيمه تنظيماً محكماً ، وصيانته من أسباب الاندثار والتلاشي .

البنت : اسمحو لي ، واعذروني إن كان فهمي بطيئاً نوعاً ما ، والمثل يقول : (الضعيف أمير الركب) ، اسمحوا لي أبي أن تعيد علينا سرد هذه الكليات بشيء من التفصيل .

الأم : أحسنت بنيّتي في هذا الطلب . فإني نفسي هممت بتقديمه ، لكنني خشيت أن أضيّع وقتكم بفهمي الثقيل ، فقلت لا داعي لذلك ، فالحمد لله الذي يسّر لي فرصة الاستيعاب وتدارك ما كان يفوتني .

الأب : سامحك الله أيتها الزوجة الصالحة ، لا تعودي لمثل هذا أبداً ، بل استوقفينا في كل نقطة تبدو لك غامضة ، فنحن نجتمع هنا لنتدبّر ونتعلّم ، لكن قبل الإجابة عن طلبكم أطلب الشاي أولاً .

الأم : شكراً لك أيها الزوج الصالح ، هاك الشاي وهاتِ الجواب .

الأب : في السورة بيان للأدب مع الله عزّ وجل ، والأدب مع رسوله ﷺ ، وتفصيل لآداب تعامل الناس والمسلمين فيما بينهم ، وفيها أدب تعامل الإنسان مع نفسه وضميره ،

وكيفية التصرف مع هواجسه .

البنت : هذه ركيزة مهمة في بناء المجتمع الذي يقوم على الإحترام والتأدب ، وعلى معرفة كلٍّ لحدوده مع الآخر ، وبخاصة حدود العبد مع الله ورسوله ﷺ .

الأب : أشارت السورة إلى حرّية الإنسان في بيته ، ونبّهت إلى ضرورة التثبت من الأقوال والأفعال ، والتأكد والاستيثاق منها قبل إصدار أي حكم ، وعدم التسرع في تصديق الفاسقين ، وأوجبت الرجوع في كل ذلك إلى الله والرسول . كما بينت طريقة مواجهة الخلافات والفتن والقلاقل التي تخلخل كيان المجتمع ، وكل هذه المناهج والطرق منبثقة من قواعد أساسية وأصيلة هي التقوى ، الأخوة ، العدل ، الإصلاح ...

الابن : ما أحسن هذه التوجيهات ، وما أرسخ هذه القواعد ، إنها هي الكفيلة بنزع الإحَنِ من القلوب ، ونبذ الخلافات بين الناس ، وهي الضامنة لتوازن المجتمع .

الأب : أكمل معكم بقية القواعد والكليات التي اشتملت عليها السورة ، فقد تضمّنت أيضاً الإشارة إلى بعض المشاعر النفسية التي تفسد العلاقات ، وفي المقابل أرشدت إلى آداب سلوك المسلمين فيما بينهم .

كل ذلك حرصاً على حفظ عرض المسلم في غيبته ،

وحضوره ، وعدم الاستهزاء به ولمزه ونبزه ، وبذلك يحفظ المرء إيمانه ، ويسلم من الفسوق .

وسعياً للمحافظة على كرامة المسلم نهت السورة عن أخذ أحد بظنة ، وعن تتبع عورات الناس .

البنت : لقد زدتنا شوقاً لمعرفة تفصيلات أكثر عن هذه الحقائق والقواعد لعظم المعاني التي تضمّنتها .

الأب : لكن ليس قبل الانتهاء من سرد بقية القواعد والكليات .

بعد ذلك أشارت السورة إلى وحدة الانسانية مختلفة الأجناس والشعوب ، وبيّنت أن أكرمهم عند الله أتقاهم .

ثم نبّهت إلى نقطة مهمّة أساء كثير من الناس فهمها ، فانطلقوا في سلوكهم ، متنكّبين عن الجادة ، وهي معرفة حقيقة الإيمان وقد حدّدت معالمه ، وبيّنت الفرق بينه وبين الإسلام .

ثمّ أشارت إلى الهبة الإلهية التي توجب على الإنسان أنْ يشكر الله عليها . إنها هبة الإيمان ، فمن وهبها فقد فاز فوزاً عظيماً .

الأم : حقاً من رزق الإيمان فقد حاز كلّ فضل . كما فزنا نحن بهذه الجلسات التي حرمنا منها من قبل ، نفعنا الله بما يعرض علينا فيها حتى نحظى بنعمة الإيمان .. وإلى اللقاء في الليلة القادمة ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الليــلة الثالثــة

الأب : من منكم يلخص لنا ما تناولناه ليلة أمس ؟

الأم : اسمحوا لي لن أنوب عنكم أيها الابناء ، فأختبر استيعابي لدروس المسجد ، فكم هي الفوائد التي تستفيدها المرأة من دروس المسجد التي تحضرها .

الابن : حسناً يا أمّاه ! هاتِ ما عندك .

الأم : حفظت من كلام شيخنا ــ رحمه الله ــ ما خلاصته وهو يتحدث عن سورة الحجرات : حقيقة شأنها عظيم رغم قصرها . فهي تشتمل على كل ما يحتاجه البشر من توجيهات لتكوين مجتمع مؤمن ، صالح مسلم ، يسوده الأمن ، وتسوده العافية والمحبة ، وحسن الظن بين أهله ، وتسوده العدالة ، وتَحسُّن العلاقات بين الناس بعضهم البعض ، وبينهم والله تعالى . ويمكن أن يقال جميع التوجيهات التي يُحْتَاجُ إليها : من إرشادات وهداية في تكوين مثل هذا المجتمع الصالح المثالي ، الذي تنحل فيه مشاكل العالم كله . كل ذلك يوجد في هذه السورة .

البنت : بارك الله فيك ، فقد كنت حافظة وواعية لما سمعته في المسجد ، أبقاك الله وأبي لتوجيهنا وإرشادنا .

الأب : أحسنتِ زوجتي الصالحة ! هكذا يكون حضور المرأة في

المسجد وفي مجلس الذكر ضرورياً ــ بعد الفراغ من أعمال المنزل ــ لتتفقّه في دينها ، فتسهم هي بدورها في بناء المجتمع الذي تشير إليه هذه السورة .

الابن : شكراً لكم جميعاً على هذه التوضيحات ، لنستأنف حديثنا في محتوى هذه التوجيهات الرّبانية ، وفي البداية هلاَّ بيّنت لنا والدي المحترم سبب نزول هذه السورة ؟

الأب : يعجبني فيك هذا الاهتمام بالمعرفة ، ويكبرك في عيني ذكاؤك ، واظب على هذا فستحصل على علم وفير ، فحسن السؤال نصف العلم ، ذكر العلماء والمفسرون روايات وأسباباً كثيرة في نزول هذه السورة ، وذكروا أسبابا خاصة لبعض آياتها ، من هذه الروايةُ التاليةُ التي ربما تكون الجامعة بين كل ما روي .

قال قتادة : ذكر لنا أن أناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا ، لو صحّ في كذا ، فَكَرِهَ الله تعالى ذلك ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ..﴾ .

الابن : هذا أدب نفسي رفيع مع الله ورسوله ، يجب علينا أن نتعلّمه ، ونلتزم به كامل حياتنا .

الأب : وقال العوفي : نُهوا (أي المؤمنون) أن يتكلّموا بين يديه .. وقال الضّحاك : لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم .

البنت : فهمت سبب النزول ، ولكنني لم أفهم القصد من هذا النداء ، وهذا التوجيه .

الأب : أريدك هكذا دائماً حريصة على التفقّه في الدين ، ملتزمة بعدم تأويل كلام الله وسنة رسوله ﷺ إلاَّ بالرجوع إلى أهل الذكّر . فأنت قد بدأتِ فعلاً تطبقين توجيهات هذه الآية بفطرتك السليمة ، وفي سؤالك تكمن الاجابة .

البنت : لم أفهم يا أبي !!

الأب : سأوضّح لك ذلك ، وقبلها أوجّه إليكم السؤال التالي : لماذا افتتح الله السورة بـ : ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ ؟.

الابن : كل ما أعرفه أن هذا النداء يكون غالباً في الآيات المدنية .

البنت : وأن الخطاب يكون موجهاً فيه للمؤمنين .

الأب : حسناً ! ولكن هناك سرّ أعمق من ذلك . هذا نداء الحبيب لمن يحبهم لتحريك تلك المحبّة في قلوبهم ، وإثارة الإيمان فيها ، هذا الإيمان الذي قد يكون أصابه جمود وهمود ، نتيجة ظروف وملابسات ، فهذا النداء يذكّر المرء أيضاً بعهد كان قد ضربه مع الله وهو الإعلان عن إيمانه الذي يستوجب الابقاء على المحبّة لله ، والتقرّب إليه .

الابن : أفهم من ذلك أن المرء حين يعلن إيمانه بربه ، يجب أن يلتزم بما يأمره به ، وبما يُوجِبُهُ هذا الإيمان من سلوك حسن .

البنت : وتبين لي الآن أن اقامة الحجة على المدعوّوين به المنادِينَ

بما يظهرونه من سلوك . فلا يكفي الادعاء بل يجب العمل بما يفرضه محتوى هذه الكلمة .

الأب : الحمد لله الذي وفّقني إلى ابلاغكما وإفهامكما هذه الفكرة ، وهذا التصوّر لأن كل ما ورد في السورة هو التزامات ، رباط العقدة فيها جملة ﴿الذين آمنوا﴾ لذا تكرّرت في السورة مرّات .

الأم : سمعت في درس الشيخ بيوض في تعليقه على هذا النداء في القرآن : إنكم مؤمنون وتدَّعون بأنكم مؤمنون ، إذن استمعوا لما يأمركم من تؤمنون به : الله ورسوله . وهل الإيمان إلاَّ الاعتقاد في وجود الله ووحدانيته وبرسالة رسوله ؟!!

الأب : سأل شخص أحد الصحابة قائلاً : عظني ، فقال له : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأعرها سمعك . فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه .

الابن : معنى ذلك أن هذا النداء لا يدعونا إلا إلى ما يسعدنا في دنيانا ويحيينا في أخرانا .

البنت : الآن فهمت معنى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .. (الآية ٢٤ سورة الأنفال) .

الأب : أحسنتما في هذه الإضافات ، أرجو أن تستصحبوا هذا الفهم

إلى نهاية حديثنا عن هذه السورة ، لنتعاون جميعا على استيضاح ما فيها من توجيهات .

البنت : إن سؤالي مايزال قائما ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

الأب : أي لا تقترحوا على الله ورسوله ، ولا تقولوا في أمر أو مسألة قبل قول الله الذي يخبر به رسول الله ﷺ ، ولا تقضوا في أمر قبل أن ترجعوا إلى الله ورسوله ﷺ وتعرفوا ما يقولان فيه .

الابن : معنى ذلك أننا لا نحلّل حتى يحلّل الله ورسوله ﷺ ، ولا نحرّم حتى يحرّم الله ورسوله ﷺ .

الأم : أي لا نسبق الله ورسوله في أمر حتى يأذنا به .

الأب : نأخذ من ذلك أن المؤمن هو الذي يرجع إلى الله ورسوله ﷺ في كلّ أموره . وبما أنّ الرسول ﷺ غير موجود بيننا بجسده فإننا نستلهم روحه في معرفة أحكام الله .

البنت : وهل كل الناس مؤهّلون لذلك ؟ بمعنى أن كلّ فرد بإمكانه استنباط الأحكام وإصدار الفتاوى .

الأب : أحسنت في هذا السؤال المهمّ والأساسي . يجب علينا الرجوع إلى أهل الذّكر ، وأهل الفقه والعلماء الأجلاّء ، الذين تشربوا الشريعة والفقه ، والراسخين في العلم الذين يعرفون مصادر التشريع .

الابن : إن مشكلتنا اليوم تكمن في كثرة من يدّعي العلم والفقه ، فيحلّل ويحرّم ، ويتقدّم بين يدي الله ورسوله ﷺ ، فاختلط على المسلمين الأمر ، فلم يتبيّنوا الحلال من الحرام ، والسنّة من البدعة في كثير من الأحيان .

الأب : هذا مايجب الابتعاد عنه والحذر منه . والقرآن نفسه يحذّرنا من ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (الآية ٥٩ سورة يونس) .

الابن : هنالك أُناس آتخذوا أعمالاً وشرائع وكيفيات شرعوها بما لم يأذن به الله ، فهؤلاء تقدموا بين يدي الله ورسوله ﷺ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الآية ٢١ سورة الشورى) .

الأب : الإلتزام بهذا الأدب هو القاعدة الأولى التي يرتكز عليها الدِّين ، ويفسر ذلك ويؤسّسه قوله تعالى بعد النداء : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي تقوى الله تكمن في عدم التقدّم بين يدي الله ورسوله ﷺ بأمر أو نهي ، والتقيّد بذلك معناه المعاهدة على اتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه .

البنت : شكراً أبي ، وما معنى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

الأب : أي احذروا من التقدم بين يدي الله بالتحليل والتحريم ، تسهيلاً للمنحرفين أو تضييقاً على المسلمين ، فإن الله لا

تخفى عنه خافية ، عليم بحركاتكم ، سميع لأقوالكم .

الابن : إن المنحرفين المنحلّين يميلون إلى تحليل الحرام بتأويلات مختلقة ، والجامدين يحرّمون ما أحل الله بتأويلات مختلقة أيضاً ، وكلا الفريقين يقدّمون بين يدي الله ورسوله ﷺ .

الأب : نعم بنّي ! الضلال جاءنا من جهتين : جهة المنحرفين الذين يحلّلون كلّ شيء يناسب أهواءهم وميولهم ، وجهة المتعصّبين الذين غلوا في دينهم ، فكل ما لا يتماشى مع ورعهم فهو حرام ، وقد نهى الله تعالى عن الغلّو في الدين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ سورة النساء .

البنت : يقول الشيخ أبو سعيد الكدمي ــ رحمه الله ــ : «ليس العالم من حمل الناس على ورعه ، إنما العالم من أفتى الناس بحسب ما يسعهم من العلم» .

الأب : فكلمة حرام فيما أحلَّ الله ككلمة حلال فيما حرّم الله . ففي كلتا الحالتين تقدّم بين يدي الله ورسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ (الآية ١١٦ ، ١١٧ سورة النحل) .

الابن : اسمح لي أبي بأن أختم هذه المسامرة بما قيل تعليقاً على هذه

الآية : «فهو أدب نفسي مع الله ورسوله ، وهو منهج في التلقي والتنفيذ ، وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته .. وهو منبثق من تقوى الله وراجع إليها ، هذه التقوى النابعة من الشعور بأنّ الله سميع عليم» .

الأم : أحسنت بنيَّ في هذه الإضافة ، بورك فيكم جميعاً .. وإلى اللقاء في السهرة المقبلة .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الليلة الرابعة

الأم : اسمحوا لي إن لم أقدّم لكم ليلة أمس الشاي ، وما أنسانيه إلاَّ اشتغالي بالتفكير في كتاب الله ، والتدّبر في الآيات التي وعدنا أبوكما بالتعليق عليها . أعدكم أنني لن أعود لذلك أبداً ، فهاكم الشاي والحلويات .

الأب : هوّني عليك أيتها الزوجة الصالحة ، فإننا لم نشعر بأنّ هناك شيئاً ناقصاً ، ونحن بدورنا شُغِلْنَا بالتدبر في آيات الله ، فلم نفكّر في الشاي وغيره .

الابن : بوركتِ من أم وزوجة صالحة ، تهتم بشؤون منزلها وزوجها وأبنائها ، كما تهتم بأمور دينها ، هكذا فلتكن المرأة المسلمة ، وإلاَّ لا كانت .

البنت : أنا استسمحكم بالعودة إلى الآية الأولى التي رأيناها أمس . فقد وقع بين يديَّ صباح اليوم كتاب قرأت فيه تعليقا على هذه الآية رأيت أن اقرأه عليكم ولا أحرمكم منه .

الأب : هاتِ ما عندك . بوركتِ من بنت ذكية وتلميذة نجيبة .

البنت : يقول الأستاذ : «إنها تقرّر أصلاً عظيماً من أصول الإسلام ، وجدير بنا أن نشير إلى هذا الأصل الذي هو دعامة الإسلام ، وعليه تشاد معاقله ، وتُبنى حصونه . هذا الأصل هو أن الحكم لله وحده ، لا معقّب لحمه ، وهو أحكم

الحاكمين ، ولا يجوز لأحد كائناً من كان أن يقدّم بين يدي الله ورسوله أمراً أو حكماً أو نظاماً أو قانوناً أو دستوراً ، لا يرضى عنه الله تبارك وتعالى ، ولا رسوله الأمين ﷺ .

الابن : معنى ذلك أن التشريع لله وحده ولرسوله المبلّغ عنه . وهنا تحضرني آية تقرّر هذا الأصل وهي قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ سورة النساء) .

الأب : وهناك آية أخرى تقرّر هذا الأصل ، وتتوسّع فيمن يجب الرجوع إليهم أيضاً وهم «أولو الأمر» حتى لا تضيق على الناس السبل ، ولا يشكل عليهم الأمر . وبذلك تقوم عليهم الحجة ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (الآية ٥٩ سورة النساء) .

الأم : أحسنتم في هذه الإضافات ، ومع ذلك فإنني أريد مزيداً من التوضيح في قوله تعالى ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾ .

الأب : من حقك هذا ، هذه العبارة لو وعيناها حقّ الوعي ، وأدركنا ما تدل عليه عليه لاستقامت سيرتنا ، واعتدلت مسيرتنا . إنها تشير إلى أن الله حاضر مع العباد في كل وقت ومكان ، وهو

قائم على كل نفس بما كسبت .

البنت : معنى ذلك إذا فعلت فعلاً فكأنني فعلته بين يديه ، أمام سمعه وبصره ــ تعالى الله عن التشبيه والتجسيد ــ فهو لا تخفى عنه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

الأب : نعم ، وننتقل بعد ذلك إلى الآية الثانية ، اقرأها من فضلك يا ابني العزيز .

الابن : سمعاً وطاعة يا أبتي ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

الأب : هذه الآية تعلمنا التأدب مع النبي ﷺ توقيره واحترامه .

البنت : كيف يتمّ هذا التوقير وهذا الإحترام ؟

الابن : اسمح لي بالإجابة عن ذلك يا أبتي .

الأب : تفضل يا بُني !

الابن : بعدم رفع الصوت فوق صوته ، وعدم الجهر في مجلسه ، وعدم التحدث بصوتٍ عالٍ حين يكون الرسول قريباً من المتحدِّثِ ، وبالجملة يأمرنا الله أن لا نحادثه ولا نخاطبه كمخاطبة بعضنا لبعض .

هكذا علم القرآن الصحابة الأدب مع رسول الله ﷺ خير خلق الله على الإطلاق .

الأم : معنى ذلك أن الله ينبّه المؤمنين إلى أن يكون صوتهم في كل الحالات أخفض من صوت النبي ﷺ وأن يراعوا في محادثته اللِّين في القول واللطف في المخاطبة .

البنت : لقد قرأت أن العلماء كرهوا رفع الصوت عند قبر الرسول ، كما كان مكروهاً في حياته ، وبين يديه لأن الرسول محترم حيًّا وفي قبره دائماً وأبداً .

الابن : هذا فقه جديد ، ومعلومة أخرى نضيفها إلى ما نتعلّمه كل ليلة ، لنعبد الله عن علم . بارك الله فيك أختي العزيزة .

الأب : لقد أثرت هذه التوجيهات في صحابة رسول الله ﷺ ، حتى أصبح أحدهم يتحرّج في الحديث في مجلس الرسول ﷺ مخافة أن يحبط عمله وهو لا يشعر ؛ استجابة لنداء الله تعالى .

الابن : ما أحلى الإيمان حين يملأ القلب ، ويغمر الوجدان ، فإنه لا يقود صاحبه إلاَّ إلى الخير ، ولا يتركه إلا سابحاً في محبة الله ورسوله مستجيباً لدعوتهما .

البنت : هلاَّ قدمت لنا ــ أبي ــ مثلاً على هذا التطبيق الفعلي والفوري لنداء الله ، نتخذه قدوة لنا .

الأب : ما طلبته هو عين الصواب . ما أحوجنا إلى الإطلاع على سيرة الصالحين ، ومعرفة التاريخ للاعتبار والتأسي .

فقد روي عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ... الآية﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس خطيب رسول الله ﷺ رفيع الصوت ، فقال أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، أنا من أهل النار ، حبط عملي ، وجلس في أهله حزيناً ، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له ، تفقدك رسول الله ﷺ ، مالك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ ، وأجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبي ﷺ : لا ، بل هو من أهل الجنّة .

الابن : ما أرفع هذا الأدب ، وما أحسن هذا الورع الذي يزع عن الوقوع فيما يغضب الله ورسوله ، ما أحوجنا إلى الاغتراف من هذا الأدب الإسلامي لتجنّب الوقوع في المزالق ، وفيما يحبط الأعمال .

الأم : اسمحوا لي أن أراجع معلوماتي ، وأركّزها ، فأعيد عليكم ما قاله أستاذنا الشيخ بيوض ، قال : هذا أدب عال أدّبنا الله تعالى به ، علّمنا كيف نحترم رسول الله ﷺ ونجلّه ، ونعامله معاملة تختلف عن غيره من سائر الناس . أدّبنا بهذا الأدب في ثلاثة مواطن ، أول هذه المواطن الحديث بين يديه ، الموطن الثاني حال مخاطبته عليه السلام ، والحالة الثالثة نداؤه إذا كان غائباً . وهو ما تشير إليه الآية

اللاحقة ، التي سوف لا تبخلون بشرحها لنا أيها الزوج الصالح .

الأب : إن للتربية القرآنية ميزتها الخاصة ، فهي تجمع بين الترغيب والترهيب ، حتى تترك المؤمن بين الخوف والرجاء ، يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه ، فبذلك تستقيم سيرته . لا ييأس ، ولا يعيش في الأماني الخادعة .

البنت : لم أفهم قصدك من هذا التعليق أبتاه !!

الأب : لو تأمّلت في الآيات القرآنية التي نحن بصدد التعليق عليها لأدركت المعنى الذي أشير إليه . ألم يحذّرنا الله تبارك وتعالى من حبوط أعمالنا ، حين نخالف أوامره ؛ بعدم الالتزام بالأدب الذي أُمرنا به مع رسوله ؟

البنت : بلى ! هذا ما وعيته من الآية ، وفهمته من مواقف الصحابة ، حتى قال أبو بكر الصديق ــ بعد نزول الآية ــ يا رسول الله ، والله لا أكلّمك إلا السِّرار أو أخا السِّرار حتى ألقى الله .

الأب : وماذا قال الله تعالى بعد ذلك ؟

البنت : قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ .

الأب : ألم تدركي بعدما جاء في الآية ؟

البنت : دعني أتأمل ، أي نعم . مدح الذين يمتثلون لهذا النداء ،

فيغضّون أصواتهم عند رسول الله ، وعدهم بالمغفرة والأجر الكبير .

الأب : لماذا كل هذا الفضل ؟ لأنهم ممن آمتحن ، وآختبر في إيمانه وفي تنفيذه لأوامر الله ، فكان من المستجيبين له ، فوعدهم تعالى بأنه سيثيبهم ، ويغفر لهم ذنوبهم . أليس في هذه الآيات ترهيب ثم ترغيب ؟

البنت : بلى يا أبي !! كيف غابت عني هذه الملاحظة ، وهذا الفهم ، آه ما أشقانا وما أبعدنا عن فهم ديننا ! لابتعادنا عن التدّبر في آيات الله ومدارسة كتابه .

الابن : حقيقة ما أعظم تربية القرآن ، فإنه إذا ذكر الوعد ذكر بعده الوعيد ، والعكس صحيح . فبعد التخويف والتحذير من حبوط العمل في الآية الأولى ، جاء الوعد بالمغفرة والأجر العظيم في الآية الثانية . وبهذا يحدث التوازن بين حياة المؤمن ، ويساعده على تحسين سيرته . لأنه دائماً يكون بين الخوف والرجاء .

الأب : لأرجو أن لا تفوتكم النكت القرآنية ، والدقة في التعبير القرآني ، تأملوا معي كلمتي (امتحن ، التقوى) .

البنت : نوِّر نفوسنا ، وأنر عقولنا بهذه النفحات القآنية ، جزاكم الله عنا كل خير .

الأب : هؤلاء المؤمنون الذين أُمروا بعدم رفع الصوت في حضرة الرسول ﷺ اختبرهم الله فوجدهم متقين لله ، محبّين لرسوله ، محترمين له ، فكانوا يغضّون ويخفضون أصواتهم في هذه المقامات مع الرسول ﷺ ، وفي هذا فضل كبير ومنَّة ونعمة ، نعمة التقوى التي لا تتيسّر لكل واحد . لهذا ذكرها الله أولاً ، ثم ثنّى بالمغفرة والأجر العظيم .

آنتبهوا ، هذا تعبير القرآن !!

الابن : ما أجلَّ هذا المعنى ، وما أذكاك يا أبي في هذه الملاحظة الدقيقة .

الأب : يقول الإمام الشيخ بيوض في هذا المعنى : ﴿أولئك﴾ أشارَ إليهم بلفظ البعيد ، تشريفاً لهم لأنهم في مقام عال ، أولئك الذين آمتحن الله قلوبهم للتقوى ، خلّص قلوبهم للتقوى ، ولم يترك فيها شائبة من العصيان أو المخالفة ، فكانت قلوبهم صافية خالصة ، ليس فيها إلاَّ التقوى .

الأم : فالمغفرة أولاً ، وهي محو الذنوب ، والزحزحة عن النار ، ثم الأجر العظيم وهو الفوز بالجنّة .

الابن : ويقول (سيد قطب) في هذا المعنى : «فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب بعد آمتحان وآختبار ، وبعد تخليص وتمحيص ، فلا يضعها في قلب إلاَّ وقد تهيَّأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها ، والذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله قد

اختبر الله قلوبهم وهيَّأها لتلقِّي تلك الهبة ، هبة التقوى ، وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم» .

إنه الترغيب العميق بعد التحذير المخيف ، بها يربّي الله قلوب عباده المختارين ، ويُعدّها للأمر العظيم الذي نهض به الصدر الأول على هدي من هذه التربية ..

البنت : وقد استنتج العلماء من هذا التوجيه ، وهذا النداء ، وقرّروا احترام كلام رسول الله ﷺ ، فحين يكون المرء في مجلس حديثٍ مثلاً ، فلا يحسن القيام منه لشخص مهما يكن مقامه .

الابن : ونأخذ منه أيضاً أدباً آخر وهو وجوب احترام العلماء فلا نرفع أصواتنا بين أيديهم ، ولا نخاطبهم إلاَّ بالرفق واللِّين ، ولا نناقشهم إلاَّ بالتي هي أحسن ، ونحادثهم في وقار وأدب مهما يكن اختلافنا معهم في الرأي ؛ احتراماً لعلمهم ومقامهم ، وتجسيداً لأدب الإسلام في توقير العلماء والكبراء من المؤمنين . (ليس منّا من لم يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا) .

الأم : بارك الله فيكما وفي هذا الاستيعاب وهذا الفهم ، وبارك الله في أبيكما على ما يبذله من جهد في تفقيهنا ، قوموا إلى نومكم فقد تأخّر الليل .. والسلام عليكم ورحمة الله .

البنت : أبتاه ، ذكرتم لنا ليلة أمس أن من بين المواطن التي علّمنا الله أن نتأدب فيها مع الرسول ﷺ نداءَه وهو غائب في بيته ، أرجو أن تبسط لنا القول في هذا الموطن ، حتى لا تحبط أعمالنا بجهلنا لهذا الأدب .

الأب : ليس قبل أن نشرب الشاي ، ونتناول ما أعدَّته لنا أمك .

الأم : سمعاً وطاعة أيها الزوج الصالح ، هاكم ما طلبتم .

الأب : أما الآن فنعم لطلبك أيتها البنت العزيزة ، اقرأ بنيّ العزيز الآيتين المواليتين .

الابن : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

الأب : قبل التعليق على هاتين الآيتين أودّ تقديم مناسبة نزولهما . قيل أن الرسول ﷺ كان آخذاً قسطاً من الراحة في قيلولة من أيام الصيف الحارة ، فجاءهُ وفد من أعراب البادية المعروفين بالغلظة والشدّة والجفاف في الطبع ــ قيل هو من تميم ــ فبدأوا ينادونه من وراء الحجرات : يا محمد أخرج إلينا ، يا محمد أخرج إلينا ، وكانوا ينادونه بصوت مرتفع مزعج ، أقلقوا راحته ، فتأذّى الرسول ﷺ بهذا

التصرف . ثم نزلت الآيتان تعلّمان الناس أدب نداء الرسول وهو غائب ، أو هو في بيته .

البنت : ما أحوجنا إلى معرفة هذا الأدب مع أنفسنا أيضاً ، حتى لا نقلق راحة بعضنا البعض .

الأب : وقد أشار القرآن إلى الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم الرسول ﷺ لأنه ما كان يحتجب عن الصحابة كثيراً إلا لقضاء مآرب في حجراته أو لأخذ قسط من الراحة .

الابن : لما كان النداء صادراً من هؤلاء الأعراب ، وهو تصرف منافٍ للعقل ، فلماذا قال الله ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ؟

الأب : سؤال وجيه وذكّي في آن واحد . أغتنم فرصة الإجابة عنه لأنبِّه إلى أمر مهمّ يدخل في صميم العلاقات الاجتماعية . إن القرآن دقيق في تعبيره ، حريص على التوجيه السليم ، فإنه ولاشك أن في جماعة الأعراب من لم ينادِ ، ولم يرض بهذا التصرف ، إذ منعه عقله من هذا السلوك ، فلا يعقل تعميم الحكم عليهم ، لذا استثنى القرآن من لم يشارك في النداء أو من لم يقبل به .

البنت : إنه أدب القرآن الذي ينهانا عن التعميم في الحكم ، ووصف الناس بما لم يقترفوه . يجب أن نحتاط دائماً في أحاديثنا ، ولا نرمي الكلام جزافاً . فكثير من المشاكل التي تحصل بين الناس ، وكثير من العلاقات يصيبها الوهن بسبب هذا التصرف .

الأب : هذا ما كنت عازماً على الإشارة إليه ، فسبقتني إليه ، بورك فيك من بنت ذكية نجيبة .

الابن : أكمل معنا توضيح ما جاء في الآيتين ، ودلّنا على هذه اللفتات المهمة في كتاب الله الكريم .

الأب : انظروا بعد ذلك إلى خُلُق القرآن وأدبه ، إنه دائماً يشير إلى رحمة الله الواسعة ، ومغفرته الحاضرة ، متى رجع المرء عن ذنبه وثاب إلى ربه . فكلما أشار إلى خطأ يُرتكب بيّن أن باب التوبة والإنابة مفتوح .

الأم : ما أروع أدب القرآن ، وما أبدع تربيته ، هدانا الله للأخذ بأساليبه ، وتربية أبنائنا على هديه ، بدل الالتجاء إلى المناهج الأخرى ، التي أفسدت شبابنا وأضلته عن سواء الصراط .

الأب : هدانا الله إلى ذلك !! لقد استجاب الصحابة لهذا الأدب ، والتزموا بهذا النداء كعادتهم دائماً . قيل إن ابن عباس رضي الله عنهما كان يذهب إلى أُبيّ بن كعب في بيته لأخذ القرآن عنه ، فيقف عند الباب ولا يدقّ حتى يخرج أُبيّ رضي الله عنه .

الابن : ونحن بدورنا يجب أن نستفيد من هذا الأدب في حياتنا ، ونقتدي بالعالم الزاهد أبي عبيدة الذي قال : «ما دققت باباً على عالم قط ، حتى يخرج في وقت خروجه» ، يجب أن لا نزعج الناس في بيوتهم وقت راحتهم ووقت جلوسهم مع

أهلهم وأطفالهم .

البنت : هكذا يجب أن يكون أدبنا مع الناس في حياتنا الاجتماعية .
«وللزيارة أدب إذا كنت حريصاً على قضاء حاجتك» .

الأب : ومن الآداب المستفادة من هاتين الآيتين آداب المساجد واحترامها ، فلا يرفع فيها صوت ولا يعبث فيها . فعمر بن الخطاب سمع مرّة اثنين يرفعان صوتهما في المسجد النبوي فقال لهما : ألا تدريان أين أنتما ؟ ثم سألهما من أين أنتما ؟ فقالا : من الطائف . فقال لهما : لو كنتما من أهل المدينة لجلدتكما .

عذرهما لكونهما غريبين ، ربما لم يعرفا ما نزل في حق المساجد بعد .

الأم : إن المساجد يجب أن تحترم أينما وجدت ، لأنها بيوت الله ، وكذا يجب توقير العلماء والمشايخ وحملة العلم ، وحفظة القرآن ، والمتصدّين للوعظ والإرشاد ، لأنهم يؤدّون رسالة الرسول ﷺ ، ومن لم يفعل ذلك كان من يحتقر العلم ، وممن لا يستجيب لنداء الله في هاتين الآيتين .

الأب : في هذا القدر الليلة كفاية ، قوموا إلى نومكم ، يبدو على وجوهكم آثار الإرهاق والتعب من سهرة أمس التي كانت طويلة ، فلنعوّض ما فاتنا من الراحة فيها هذه الليلة .

الأم : ما أرحمك بنا أيها الزوج الصالح ، صحبتكم عناية الله .. والسلام عليكم ورحمة الله .

البنت : قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ
أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧
فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٨ ﴾

الأب : يأتي هذا النداء الثالث ، ضمن التشريعات والتوجيهات ــ ليبيّن للمؤمنين كيف يتلقّون الأنباء ، وكيف يتصرّفون في الأخبار ، ينبههم إلى أنه يجب التثبّت من مصدرها ، والصدق في نقلها ، والتروّي في إصدار الحكم اعتماداً عليها .

الابن : إن الصدق هو الدعامة التي يبنى عليها كل صرح وكل بناء ، وهو أسّ الأخلاق ، ودليل السموّ الإنساني والرقي الحضاري ، وهو الضامن لاعطاء الحقوق وأداء الواجبات .

البنت : وهو الكفيل بتوطيد العلاقات الاجتماعية ، بزرع الثقة في النفوس ، فلا يمكن أن يستغني عنه إنسان مهما تكن مكانته ومنزلته ، إذا كان يعيش في مجتمع يريد له أن يكون متماسكاً وفاضلاً .

الأم : يبدو من تعليقاتكم القيّمة أن الموضوع خطير ومهم ، يحتاج

إلى تركيز ، وربما طالت جلستنا الليلة لهذه الأهمية ، لذا أريد أن أنعش أرواحكم ، وأذكي نشاطكم بالشاي المنعنع حتى تقووا على الحوار والاستيعاب .

الأب : صحيح أيتها الزوجة الصالحة ، إن الموضوع مهمّ وخطير .. فكثير من المشاكل حصلت ، وكثير من العلاقات انحلّت ، بسبب عدم الالتزام بهذا الأدب الذي تشير إليه الآيات المذكورة سابقاً . لذا يجب أن نعطي الموضوع حقّه من التحليل والتوضيح حتى نستوعبه ونطّبق ما جاء فيه من توجيهات قرآنية سامية .

الابن : شوّقتنا إلى معرفة ما نطقت به الآيات ، فهلاَّ عجَّلتَ بإفادتنا بهذه الآداب ؟!

الأب : أضيف إن هذه الآيات لو عمل بها المسلمون لتخلّصوا من كثير من المظالم ، ووقوا أنفسهم كثيرا من الفتن . إن أحكام الناس أغلبها تنبني على الأشخاص والهيئات التي تنقل الأخبار ، وتبعاً لذلك تحدّد المعاملة والعلاقة مشوبةً بعدم التثبت والتروّي ؛ لذلك نبّهنا الله تعالى إلى التأكّد من الخبر والنبأ المقدّم إلينا ، والتريّث في إصدار الأحكام ، خاصّة في الأزمنة التي تكثر فيها السعايات والوشايات ، ويقلّ فيها أمناء نقل الأخبار .

البنت : حقيقة يبدو الموضوع خطيراً ومهماً ، يحتاج منّا إلى إصاخة

سمع وفتح بصيرة ، وإعارة اهتمام .

الأب : الخطر قد يأتي من تعمد الكذب ، والتزوير على الغير ، لغرض ولحاجة في نفس الكاذب . وقد يأتي من بطانة السوء التي تحيط بالرئيس أو المسؤول أو الحاكم ، الذي يعطي الثقة فيها ، فيصدّقها في كل ما تأتيه من أخبار .

البنت : لبعض مهرة الكذّابين حيل وأساليب قد تخفى على أشد الناس تثبيتاً وعقلاً وحكمة وإدراكاً ، خصوصاً في زماننا هذا ، وقد أصبحت أسلحة الدعاية والكذب فيه من أفتك ما نحارب به ، بل أصبح للكذب معامل ومصانع ومطابخ تهيّىء الكذب وتجمّله وتزيّنه وتصقله ، ثم تدسّ سمّه في الدّسم ، وتقدّمه طعماً للغافلين الأبرياء من الناس ، فتوقعهم في شباك الكذب من حيث لا يشعرون» .

الابن : أحسنت في هذه الاضافة ، فقد أكّدت ما قاله أبونا ، أزيد وأقول أنا : ان الخطر يأتي أيضاً من الغفلة ، وحسن النيّة في تلقي الأخبار ؛ لقصور في المتلقي ، ذكاء وفطنة ورويّة ، ويقع في هذا الرؤساء والقضاة والمسؤولون الذين بأيديهم إصدار الأحكام .

الأم : وقد يحصل الخطر بسبب القصور أو التقصير في النقل ، قدرة وأمانة وتأويلاً .

الأب : من هذه العوامل التي ذكرتم بعضاً منها تكمن

الأخطار التي تَنْجُمُ عن أمثال هذه التصرفات . فمثلاً قد يؤدّي عدم التثبّت إلى الانتقام السريع ، فكم من أموال اغتصبت ، ورؤوس أطيح بها ، ومظالم اقترفت ، بسبب عدم الإلتزام بهذا الأدب .

وقد يؤدي عدم التحقّق في الأخبار المنقولة إلى إصدار أحكام مجحفة ظالمة في حق بعض الأشخاص .

وقد يساعد ذلك أيضاً على كثرة الاشاعات والأراجيف ، وكثرة الأقاويل التي لا أصل لها ، ولهذا قال الرسول ﷺ «التثبّت من الله والعجلة من الشيطان» .

الابن : لهذا نادانا الله تعالى بهذا النداء وأمدّنا بهذه الركيزة المهمة والضرورية لبناء صرح المجتمع الفاضل .

البنت : عوّدتنا أبتاه على ذكر سبب النزول ، فما سبب نزول هذه الآيات ؟

الأب : إن كثيراً من المفسّرين ذكروا أن هذه الآيات نزلت في «الوليد بن عقبة بن أبي معيط» حيث بعثه الرسول ﷺ على صدقات بني المصطلق . يتصدّقهم فتلقّوه بالصدقة ، فرجع فقال إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك . زاد قتادة : وإنهم قد ارتدّوا عن الإسلام . فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ إليهم وأمره أن يتثبّت ولا يعجُل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونه ، فلماجاؤوا

أخبروا خالداً أنهم متمسّكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذي يعجبه ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

البنت : إذن فالآيات تأمر بالتثبّت والتمحيص في خبر الفاسق ، وفي كل خبر ينقل إلينا .

الابن : من هو الفاسق الذي يتبيّن خبره ، ويتثبّت منه ؟

الأب : هو المنتقل من طاعة الله إلى معصيته ومخالفة أمره .

البنت : فهمت لماذا سمّي ناقل الخبر الكاذب فاسقاً ، لأنه انتقل من زمرة الصادقين الذين يتّصفون بطاعة الله ، ويلتزمون بها إلى زمرة الكاذبين الذين عصوا ربهم بالافتراء والتزوير ، والابتعاد عن سواء الصراط .

الابن : ما مدلول كلمة ﴿الجهالة﴾ هنا ؟

الأب : أحسنت في هذ السؤال . معلوم أن الجهل معروف عند الناس أنه ما كان ضد العلم . وهذا معنى وارد في الآية . والله ينهى بألاَّ تتصرفوا مع الأخبار المنقولة إليكم بدون علم حقيقي ، لأنكم لم تتأكّدوا من صحتها .

كما أن الجهل يعني السفه والطيش ، والتسرّع والعجلة في التصرف .

هذا المعنى ورد في قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ

﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (الآية ٦٣ سورة الفرقان) .

فالجاهلون هم السفهاء .

البنت : وفي هذا المعنى قال الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الابن : بهذه الإجابة وهذا التوضيح ــ بارك الله فيكم أبتي ــ يتبيّن لنا خطر هؤلاء الذين يصدرون أحكاماً خاطئة وظالمة ، بسبب الجهل بحقيقة الأمر ، والذين يتصرّفون تصرّفات طائشة ، بسبب السفه .

الأب : هكذا بدأتم تدركون مضمون هذا التوجيه الرّباني ، وهذا الأدب القرآني ، أضيف إليكم نكتة أخرى ، وهي أن الله اختار لفظة ﴿فاسق﴾ ولو شاء لقال إنسان ، لمعنى عميق . فإن الفاسق عادة لا يتورع عن الكذب والتزوير واختلاق الأقوال ، وبهذا الاختيار يؤكد الله الفكرة في النفس ، وفي الوقت ذاته ينفّرنا من هؤلاء الناس ، ويبعدنا من هذه التصرفات .

الأم : لقد صدق عمر بن عبدالعزيز حين قال : «إذا جاءني الخصم وفي يده عينه مفرغة (مخلوعة) لا أحكم له ، وأقول إنه مظلوم حتى أسمع لخصمه ، وأتثبت منه ، فلعلَّ هذا قد أفرغ وخلع عيني ذاك» .

الابن : ما أعظم وأفضل من ييسّره الله ويوفقه للاستجابة لنداء الله ، ويهديه للسير في الطريق المستقيم .

الأب : هذه الآيات تذكّرنا أيضاً بأمراض اللسان التي يجب تجنبها ، والاستشفاء منها بشفاء القرآن ، لأنها حين تنتشر وتذيع تتسبّب في زعزعة المجتمع وتقويض أركانه .

البنت : ما هي هذه الأمراض من فضلك يا أبي ؟

الأب : هي كثيرة ، حسبي أن أشير إلى بعضها ، منها الكذب والغيبة والنميمة والبهتان ، والفحش والسب ، والجدال والخوض في الباطل ، والخصومة والفجور واللعن ، والسخرية والاستهزاء وإفشاء السرّ والمراء ... الخ .

الابن : ما أخطر اللسان ، وما أضرّه بالإنسان ، حين لا يوجّه إلى الخير ، ولهذا ورد عن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الاعضاء كلها تذكّر اللسان ، أي تقول : اتق الله فينا ، فإنك إن استقمت استقمنا ، ولو اعوججت اعوججنا .

الأب : وعن ابن مسعود أنه كان على الصّفا يلبي ويقول : يا لسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم . فقيل له : يا أبا عبدالرحمن : أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال : لا ، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه .

البنت : أود أن أشير إلى جانب مهم في أخلاقنا الاجتماعية ، وهو الكذب في الحديث والرواية والعمل ، لا لشيء سوى التخلّص من عتاب صديق ، أو دفع تبعة محتملة . وكذا المصانعة والمداهنة والرياء والتقيّة في غير ما بيّنته السنّة .

الأب : إذن فلنحذر هذه المزالق ، وهذه المهاوي لتستقيم نفوسنا وتنتظم حياتنا ويتنظف مجتمعنا .

الأم : ما أروعكم في التدبر في آيات الله ، وفي التفقه في دينكم ، وفي محفوظكم من سنة رسول الله ﷺ وفي أقوال الحكماء . فمن بركة القرآن أن وفقنا إلى الاستطراد والاستفادة في موضوع اللسان ما يجنبنا الوقوع في المهالك .

يبدو أن الجلسة بدأت تطول ، والتعب بدأ يأخذ منكم ، فلنرجيء بقية الحديث إلى الليلة القادمة إن شاء الله .. والسلام عليكم ورحمة الله .

** ** **

الأب : ما أروع القرآن ، وما أحسن ما فيه من بركة ، فمن كلمة واحدة وهي ﴿الفاسق﴾ التي وردت في سياق الحديث عن تجنّب الكذب ، آمتدّ بنا الكلام في أمراض اللسان ، لنعرفها ، ونجاهد في التداوي منها بطب القرآن ، إنها والله البركة والنماء في الانفاق من كلام الله .

الابن : جعلنا الله ممن يهتدي بهدي القرآن ، ويكثر من التدبّر في آياته ومدارسته .

الأب : لنستأنف الحديث في بقية الآيات . إن الجهل والحمق اللذين يدفعان الإنسان إلى الانتقام عادة ، دفعا بعض الصحابة إلى التحمّس لمحاربة هؤلاء القوم : بني المصطلق ، الذين ظنوهم قد ارتدوا عن الإسلام ، حسب شهادة الوليد بن عقبة ؛ غيرة على الإسلام ، فنبهّهم الله تعالى إلى التريّث ، وأشار إليهم أن الرسول بينهم .

الأم : هل كان الصحابة يجهلون أن الرسول موجود بينهم حتى يُنبّهوا إلى ذلك من الله ؟

الأب : صبّي لنا الشاي حتى نجيبك عن هذا السؤال .

الأم : تفضّل زوجي ، وأزل ما في نفسي من قصر فهم في التعبير القرآني .

الأب : إن الآية لا تقصد المعنى الظاهري للعبارة ، إنما تعني المعنى الخفي منها ، وهو التوجيه إلى كيفية التصرف في مثل هذه المواقف ، وتذكير المؤمنين بأمر مهم ، سبقت الإشارة إليه ، وهو عدم التقدّم بين يدي الله وسوله ، وعدم الإقدام على أمر قبل الرجوع إلى الرسول ﷺ وهو بينهم ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحيٌ يوحى .

الابن : أفهم من هذا أن هذا لَوم وعتاب للمؤمنين ، الذين نسوا التوجيهات التي أعطيت لهم ، وهو شأنهم في مختلف الأزمنة ، وفي كثير من القضايا ، وهو ما يستوجب تذكيرهم من حين إلى حين .

الأب : وفي هذا التعبير إعلام للمؤمنين ، وإخبار لهم بأن فيهم المرشد والمراقب لتصرفاتهم . إذن تجب طاعته ، والاستجابة لأوامره وبذلك يعود الحديث عن تلبية نداء الله والرسول من جديد ، وعن التنبيه إلى عدم السبق بالرأي والتعجل في الحكم .

البنت : ما أروع القرآن في ترابط آياته ، وانسجام تعبيراته ، وتلاحم حلقاته ، إنه يترك المتدبر فيه دائماً في خط واحد في فهم الموضوع الذي هو بصدده ، رغم التفصيلات والتفريعات التي يقدمها القرآن .

الأب : فالرسول تثبّت في أمر بني المصطلق ، وأرسل خالد بن

الوليد ليتأكد من هذه الأنباء ، فأعطى للمؤمنين درساً تربوياً في كيفية التصرّف في أمثال هذه المواقف . فهو لم يستجب لحماسة المسلمين واندفاعهم ، إنه تصرف بوحي من الله

الابن : ولكن ، ما معنى قوله تعالى : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ ؟

الأب : هذا توجيه تربوي قرآني آخر مهم ، يعني لو استجاب الرسول ﷺ إلى تصرفاتكم واقتراحاتكم ، التي تتّسم بالبشرية ، ولم يعمل بالتوجيهات الربّانية التي تتّسم بالخيرية لنالكم من طاعته إياكم عنَت وجهد ومشقّة وهلاك كبير .

البنت : لاشك أن هذه التوجيهات زادت في محبة المسلمين للرسول ﷺ والالتفاف حوله ، وزاد مقامه عندهم رفعة ومهابة وتقديراً .

الأب : قيل في تفسير هذه الآية : أي اعلموا أنَّ بين أظهركم رسول الله ، فعظّموه ووقّروه ، وتأدّبوا معه ، وانقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم أنفسكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الآية ٦ سورة الأحزاب) ، وقال : ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم

وحرجكم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ (الآية ٧١ سورة المؤمنون) .

الابن : ونحن بدورنا نأخذ من هذا الموقف عبرة تنفعنا في حياتنا ، وهي إعطاء الثقة فيمن يسيّر أمورنا ومصالحنا من المسلمين ، فلا نكثر من الانتقادات ولا نندفع بحماستنا وعاطفتنا فنتصرّف بما لا تحمد عقباه ، فنبوأ بالخسران المبين . إن الثقة عنصر أساسي في العلاقات الاجتماعية ، وفي ضمان استمرار المسيرة ، يجب أن نرجع الأمر دائماً إلى أولي الأمر .

الأب : ذكّرتني ابني العزيز بآية أخرى تشير إلى هذا الأمر ، وإلى هذا التوجيه ، هي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ (الآية ٨٣ سورة النساء) .

فالآية تحارب الاشاعة وإذاعة الأخبار قبل التثبت منها ؛ لأنّ الإشاعات تنتشر بسرعة ، وتثمر نتائج ــ غالباً ــ تكون سلبية على المجتمع . لهذا أرشدنا الله تعالى إلى عدم ترويج الأخبار قبل التأكد منها . فالإشاعات مرتع المنافقين والمغرضين الذين يصطادون في الماء العكر .

البنت : كم هي عالية توجيهات القرآن الحريصة دائماً على تماسك المجتمع وتضامنه ، لذا فهي ترجع الأمر في كل الحالات إلى أولي الأمر ، وإلى أهل الحلّ والعقد ، ممَّن أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، وبذلك يسود النظام وتبتعد الفوضى ، والشاعر يقول :

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

الابن : من هم أولو الأمر ؟

الأب : أولوا الأمر هم القادرون على الاستنباط ، وهم حملة الشريعة والمتفقّهون في الدين ، من آتاه الله الحكمة وحباه بُعد النظر في الأمور ، ومن رشّحته مؤهلاته لقيادة الأمة وتحمّل المسؤولية في مختلف المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية ... فليحذر الذين هم دون هذه المواصفات أن يحشروا أنفسهم في توجيه الأمة ، فلا يفهمنَّ الناس أن كل شخص في إمكانه توجيه المجتمع .

البنت : أفهم مما ذكرتم أبتاه أننا مكلّفون ومخاطبون بهذه الآيات فلا نترك الشائعات تروج بيننا ، ولا نتصرّف فيها بمقتضى أهوائنا ومداركنا القصيرة ، بل يجب أن نردّ الأمر إلى أولي الأمر الذين يقدرون على الاستنباط ، وتقدير الصالح لنا من أمورنا . فهم الذين يرشدوننا إلى الطريق الأقوم .

الأب : ربما أخذني الشجن فاستطردت في الموضوع ، وقد كان قصدي أن أبيّن توجيهات القرآن في كيفية تسيير المجتمع والحياة ، لأن كثيراً من شباب الإسلام وعامته أسهموا في اضطراب مجتمعاتهم ، بسبب عدم التقيّد بهذا التوجيه التربوي القرآني الصارم ، رزقنا الله العمل بما نعلم .

الابن : شكراً أبي على هذه التوضيحات ، ولنعد الآن إلى بيان بقية ما تضمّنته الآيات ، التي نحن بصدد استخراج ما فيها من معان .

الأب : بعد أن بيّن الله تعالى أن الأمر يعود إلى أولي الأمر ــ والرسول منهم طبعاً ــ وأنه من مصلحة المؤمنين ، ومن تمام سعادتهم عدم رضوخ أولي الأمر دائماً لإرادتهم ، والاستجابة لاقتراحاتهم ذكَر للمؤمنين أن تطبيقكم لهذا التوجيه هو ثمرةالإيمان الذي زيّنه الله في قلوبكم ، وحبّبه إليكم ، وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان .

الأم : ما أبدع هذه السورة ، وما أروعها ، فإنها كلها تدور حول الإيمان والتقوى ، إذ لا يكاد يخلو مقطع منها من التذكير بهما .

البنت : وتشير الآيات إلى أن هذه نعمة من الله وفضل ، إذ ركز الإيمان في قلوبكم ، فالإنسان قد يرى حسناً ما ليس كذلك ، والعكس صحيح ؛ لذا من وفقه الله تعالى إلى الإيمان فيختار له ولا يختار لنفسه ، فقد حاز نعمة كبيرة

وفضلا عظيماً .

وهذه النعمة أفضل حتى من نعمة الوجود ، التي ان لم يكتنفها الإيمان كانت وبالاً على صاحبها .

الأب : أحسنت بنيّتي في هذا الاستنتاج ، وفي هذاالفهم ، وما هداك إلى ذلك إلا الإيمان الذي يغمر قلبك ، وفقنا الله جميعاً إلى ذلك .

الابن : اسمح لي أبتي في التعليق على كلمة ﴿زيّنه﴾ التي لها مدلول عميق . إن الشيء إذا كان زيناً عند الإنسان ، فإنه يتمسك به ، ولا يفرّط فيه أبداً ، والشخص قد يرزق الإيمان في قلبه فلا يشعر به ، أو لا يراه زيناً فيعبد الله عن تقليد وعن أمّعية . وقد يرى في العبادة مشقّة وعنتاً ، فينقصه الورع الذي يعصمه ويمنعه من ارتكاب الأخطاء واقتراف الذنوب . بينما حين يكون الإيمان زيناً في قلبه فإنه يحبّه ويتمسك به ، ثمَّ لا يسير إلاَّ في الطريق المستقيم .

الأب : أحسنت في هذا الاستنتاج ، وهذا الفهم ، هكذا أريدك دائماً متدبّراً في آيات الله . حتى تقف بنفسك على بعض أسرارها لتزداد إيماناً ورشاداً .

البنت : هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم يحبون الإيمان ، ويكرهون الكفر والفسوق (الكبائر) والعصيان (الصغائر) حصر الرشد فيهم فقط ﴿أولئك هم الراشدون﴾ .

الأم : ما مدلول كلمة الرشد ؟

الأب : الرشد سلوك طريق الخير والحق ، والاستقامة مع تصلب فيه ، والرشادة هي الصخرة ، أي هؤلاء المؤمنون هم المهتدون إلى التي هي أقوم دون غيرهم .

ثم بيّن بعد ذلك أنه عليم بأحوال عباده ، خبير بها ، حكيم في تصرفاته مع خلقه .

الابن : اسمح لي أبي أن أختم هذه الجلسة بما قيل تعليقاً على هذه الآية : «والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأنّ الله هو الذي أراد بهم هذا الخير ، وهو الذي خلّص قلوبهم من ذلك الشر : الكفر والفسوق والعصيان ، وهو الذي لجعلهم بهذا راشدين ، فضلاً منه ونعمة . وإن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة ، وفي تقرير هذه الحقيقة إيحاء كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة ، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيراً لهم قبل أن يختار الله لهم . فالله يختار لهم الخير والرسول ﷺ يأخذ بيدهم إلى هذا الخير» .

الأم : أحسنت بنّي في هذه الخلاصة ، وأحسنتم في هذه المحاورة الجميلة اللطيفة . قوموا إلى نومكم فقد تأخّر الليل .. والسلام عليكم ورحمة الله .

الأب : حديثنا الليلة متصل بسابقه أمس وفي قوله تعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

.....

فبعد أن نبّه الله تعالى إلى تبيُّن خبر الفاسق ، وحذّر من الحميّة والحماسة ، قبل التثبت من الأخبار ، أشار إلى قاعدة أخرى أساسية لصيانة المجتمع من التفكك والخصام والشقاق ، وهي ما تضمنته هذه الآيات .

البنت : مازلت مشدوهة ومشدودة بهذا الترابط في القرآن ، وهذه الوحدة في آياته ومعانيه التي لا تظهر إلا للمتدبر فيها . أريد أبي أن اسألك عن مناسبة نزول هذه الآية .

الأب : لا تهم المناسبة ، لقد وردت فيها روايات كثيرة . قيل نزلت بسبب حادثة ، وقيل هي تشريعية . المهم أنها قاعدة عامة ومحكمة لحماية الجماعة الإسلامية من التفرق والتصدّع ، ثم إقرار الحق والعدل والصلاح ، والاحتكام في كل ما يحدث بين الإخوة المسلمين إلى تقوى الله .

الابن : صحيح أن من مقاصد الشريعة الإسلامية توحيد كلمة

المسلمين ، ولهذا آمتنَّ الله عليهم بهذه النعمة في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ...﴾ (الآية ١٠٣ سورة آل عمران) .

الأب : كما تلحظ يا بني فإن الله الخبير بنفوسنا ، العليم بمخابرنا ، التي تنطوي على الظلم والاعتداد والنفور ، كان لطيفاً بنا في معالجة أحوالنا ، ورأب الصدع ، ولمّ الشمل . فحق له أن يمتنّ على عباده بهذه النعمة .

البنت : فكيف عالج الله تعالى هذه الفتن والنزاعات والمخاصمات بين المؤمنين ؟ وما هي طريقة القرآن في إصلاح ذات البين ؟

الأب : أوجب الله على المسلمين أن يسارعوا إلى الإصلاح بين المتخاصمين من المؤمنين ، وأن لا يتركوا الخلاف يتسع بينهم ، والشقاق يمتد . وفرض استغلال أية طريقة ووسيلة ممكنة ومشروعة للإصلاح . واعتبر أي تقصير في هذا السبيل خطأً شرعياً .

الابن : ما مدلول كلمة طائفة ؟

الأب : كلمة طائفة تطلق على الجماعة الكبيرة والصغيرة ، وعلى الشخص الواحد ، وبذلك فإن الاصلاح يكون حتى بين شخصين اثنين وذلك حفاظاً على وحدة المسلمين .

البنت : وما مدلول كلمة المؤمنين في هذا السياق ؟ وهل المؤمنون يقتتلون ؟

الأب : هنا يظهر انصاف الله لعباده ، حين يبين أن المؤمن بشر قد يخطىء ، وقد ينزغ الشيطان بينه وبين أخيه ، فيرتكب حماقات ، لكن الإيمان الذي في قلبه يمنعه من التمادي في الخطأ ، فيرجع إلى ربه .

وقد يكون في المؤمنين ضعفاء ، يجب أن نأخذهم بالرفق في معالجة ما بهم من ضعف .

الابن : في هذا التعبير إشارة خفيّة إلى عدم العنف على المخطيء ، وعدم التسرع إلى وصفه بالكفر ، وسلب الإيمان منه بمجرد صدور خطأ بسيط منه «بشّروا ولا تنفّروا ، يسّروا ولا تعسّروا» .

الأم : لله ما أدقّ تعبير القرآن ، وما أعدل الله مع خلقه !!

الأب : هكذا أريدُ ن تشاركينا ــ دائما ــ في أحاديثنا وسمرنا بما تقدمينه لنا من شاي وحلويات ، وما تسهمين به من تعليقات .

فعلا كما قال ابننا أن الله يرشدنا إلى عدم التعجّل في الحكم على المذنبين بما لا يليق ، ومن جهة أخرى لا نسكت على أخطائهم ، بل نسارع إلى الصلح والإصلاح

الابن : وإن لم يوفّق المتدخلون في الصلح ، فماذا يجب على الجماعة

الإسلامية ؟

البنت : الجواب : ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ .

الابن : ما معنى البغي ؟ وما معنى الفيء ؟

الأب : البغي : هنا معناه تجاوز الحد ، والتمادي في الظلم وإباء الصلح ــ والفيء : معناه الرجوع . وفي هذا السياق يعني الرجوع إلى الطريق المستقيم ، وإلى الإيمان .

البنت : ولكن كيف تتم مقاتلة الباغي المؤمن ؟

الأب : في الحقيقة لا يبقى هذا المُتَمَادِي مؤمناً حقيقياً ، مادام مصرًّا على ما أقدم عليه ، بعد محاولات الصلح من الجماعة .

الابن : إن القرآن كان دقيقاً في التعبير وفي الوصف ، فهذه الفئة لم يسمِّها باغية أول ما نشب القتال بينها والفئة الأخرى ، للملحظ الذي سبق ذكره أولاً . وللتروّي في إصدار الحكم ، حتى يعرف الطرف المعتدي ثانياً ، وحتى يقوم المسلمون بواجبهم في الصلح فيظهر المؤمن من الباغي ، الذي لا يستجيب لدواعي الإيمان ثالثاً ، ولكن حين لا تذعن هذه الفئة لأمر المسلمين وحكم الجماعة تكون باغية ، تجب محاربتها وقتالها .

الأب : لله درّك من ولد نجيب وفطن للنكت القرآنية ، زادك الله فقهاً في دينك ، وألهمك رشدك .

البنت : شكراً لك أبي على هذا التصحيح في المفهومات . غير أن

سؤالي مايزال قائماً .

الأب : تجب محاربة البغاة وقتالهم حتى يرجعوا إلى أمر الجماعة ، ويرضخوا إلى الصلح الذي يتوصل إليه . بعد ذلك يعاملون كما أوصى الإسلام ، أي لا يجهز على جريح ، ولا يقتل أسير ، ولا يطلب هارب ، ولا يسبى الذراري والنساء ، ولا يقسم فيءٌ كما جاء في الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، فالكل إخوة في الله يجمع بينهم الإسلام والإيمان .

الابن : إذن هذا هو الفرق بين قتال الفئة الباغية من المؤمنين ، وقتال المشركين والكفار .

البنت : واضح أن الغرض من قتال الفئة الباغية ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو العمل على ردّهم إلى الصفّ ، وضمّهم تحت لواء الإخوّة الإسلامية .

الأب : لهذا فليحذر الذين يقومون بهذا الواجب في الصلح ثم يخطئون في حق إخوانهم ؛ بسبب الجهل بالدين ، فتتسع الشقة بين المسلمين وهو ما نلمس نتائجه الوخيمة الأليمة اليوم في مختلف بقاع العالم .

الأم : كذا فليعامل المذنبون الذين ثابوا إلى رشدهم . يجب أن لا نشمت بهم ، ولا نذكر عيوبهم ، ولا نمنّ عليهم بما قمنا به من أجل توبتهم ، كما يفعل الكثير من الجهلة بأصول

التربية والتوجيه القرآني .

الابن : وما الفرق بين الصلح الأول والصلح الثاني ؟

الأب : الصلح الأول هو العمل على إيقاف القتال بين الطائفتين المتقاتلتين ، والجلوس والتفكير في طريقة المصالحة .

أما الصلح الثاني الذي يكون بعد فيء الفئة الباغية إلى الحق والرضوخ إلى نداء المسلمين ، فهو إعطاء كل ذي حق حقه بعد الاضرار التي حصلت في هذا القتال أو هذه المواجهة .

الأم : صحيح أن القتال لا ينشب إلاَّ بسبب تعدّ ، وهو بدوره يسبّب أضراراً . فلابد أن تكون هناك أموال قد أتلفت ، ودماء قد أريقت ، وأعراض قد انتهكت ، وحرمات قد ديست ، فتترتب على ذلك ديات يجب أن تؤدّى ، وتعويضات يجب أن تُعطى ...

الأب : ولهذا أمرنا بالعدل والقسط في الصلح ، والله يحب المقسطين الذين لا تأخذهم عاطفة للانحياز ولا عداوة للتعصب .

الابن : ثم عقّب الله بعد كل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

الأب : انظر يا بنّي إلى هذا العامل النفسي في هذا التوجيه ، فإن الله ذكر بعد هذا الذي يحدث بين المؤمنين من شنآن وخصومات ، حقيقة المؤمنين وهي أنهم إخوة . فلا يمكن لهم وهذه صفتهم أن يتنافروا فضلاً عن يتقاتلوا .

البنت : إن هذا تذكير لهم بما ينسونه عادة ، ينسون في مثل هذه المقامات الرابطة الوثيقة بينهم ، التي تجمعهم ، إنها الأخوّة الإسلامية التي لا يتحقق إيمانهم إلا بها ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ .

الابن : وكما يذكرهم الله بالتقوى ، يشير لهم بأنهم لن يرحموا إلا إذا كانوا متقين ، ومن تمام التقوى الاتصاف بصفة الأخوّة .

الأب : إنها حقّاً استجاشة وإثارة لمن سبق الإيمان إلى قلبه . فتحريك نفسه ، وتذكيره بهذا الإيمان ، وما يتصل به يكون سهلاً ميسوراً ومفيداً .

الأم : إنه الأدب القرآني الذي علّمنا كيف نتعامل مع المخطئين ، وكيف نساعدهم على الأوبة والعودة عن غلطاتهم . فلا نسهم في إبعادهم عنّا بسوء التصرف معهم .

الأب : ألا تلحظون تكرير الصلح في هذه الآيات ؟ كل ذلك حرصاً من القرآن على توجيهنا إلى العمل على التَّوحُّد والتآلف .

الابن : لكن هل هناك فرق بين أصلحوا بينهما في صدر الآية الأولى ، وبين أصلحوا بين أخويكم ؟

البنت : اسمح لي أن أجتهد رأيي في الفهم والتفسير .

الأب : تفضلي ، اختبري قدرتك على الاستنباط والتأويل .

البنت : الصلح الأول يجيء بعد القتال الذي ينشب بين فريقين

اختلفا وتعاركا . والإصلاح الثاني يكون بعد خلاف ونزاع يكون بين اثنين دون أن يفضي إلى قتال أو حرب .

الأب : أحسنت في التأويل والفهم . إذن لا يفهمنّ أحد أن الإصلاح لا يكون إلاَّ بعد أن ينشب قتال بين فريقين . بل يجب المسارعة إلى الصلح حتى حين ينشأ خلاف بين أخوين مهما يكن هذا الخلاف ، ومهما تكن النتيجة التي تنتج عنه .

الأم : صحيح ، فإن النزاع لا يكون بين فئتين فقط ، فقد يكون بين الزوج وزوجته ، والابن وأبيه ، والشريك مع شريكه ، والجار وجاره ، والعامل ورب العمل ... لذا يجب الإسراع في الصلح مع كل هؤلاء . إن الآية كانت دقيقة في التعبير .

الابن : بارك الله فيكم على هذا التوضيح . فهمت الآن وأدركت براعة النسج القرآني . فبعد أن أتى بهذه المُسلَّمَة وهي أن المؤمنين لا يكونون إلاَّ إخوة ، قرّر وأوجب ألا يكون الشقاق والنزاع حتى بين آثنين وإلاَّ سلب منهم الإيمان إن لم يرجعا إلى بعضهما البعض ، كما لا يعذر المؤمنون إن لم يقوموا بواجب الإصلاح .

البنت : وفي الإتيان بالفاء في ﴿فأصلحوا﴾ دلالة عميقة . الفاء تدل على الترتيب مع التعقيب . فيترتب على الاتصاف بالإخوَّة الإسراع بدون تراخ في الإصلاح حين ينشب خلاف بين أخوين .

الأم : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار» رواه أبو داود .

الأب : انظروا إلى وعيد الله في الهجران والتنافر بين المسلمين ، كل ذلك حرصاً على الوحدة والاتحاد ، وفي المقابل وعد السّاعين في الإصلاح خيراً كثيراً . عن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ «كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة» . الحديث متفق عليه .

الابن : ويقول الرسول ﷺ : «ألاَ أدلكم على أفضل من درجة الصيام والصدقة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين» (طبعاً النفل منها وليس الفرض) .

البنت : بهذا يكون الاصلاح في الآية الأخيرة تأسيساً لقاعدة أخرى في صرح الوحدة ، وليس تأكيداً .

الأب : وأخيراً يختم الله هذه التوجيهات بالرحمة ، حيث بيّن أنه : إذا أردتم أن يسود مجتمعكم سلام ووئام وانسجام والتئام ، فاسعوا إلى الصلح فتنالكم بذلك رحمة الدنيا ، وبعدها رحمة الآخرة وهي الفوز بالجنة .

الأم : ومن تمام الرحمة بأنفسنا أن نشفق عليها فلا نرهقها . فقد طالت السهرة فلنأو إلى فُرِشنا .. والسلام عليكم ورحمة الله .

الأب : مايزال الكلام متصلاً في وحدة المسلمين ، وتآلف قلوبهم ، فبعد التأكيد على صفة الإيمان ، وتأسيس قواعد في الأخوّة الإسلامية ؛ بالدعوة في الإسراع إلى محو كل آثار الخلاف ، ليبقى المجتمع متماسكاً ، حذّر الله المؤمنين من أسباب الفرقة ، ومن عوامل الشحناء والبغضاء . وهو ما تضمّنته الآية الكريمة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

البنت : قيل إن السخرية بالخلق والإزدراء بالناس واللّمز والتنابز بالألقاب ما هي إلا عوامل للفساد ومعاول لهدم الأخوّة بين المؤمنين ، بل هي الفسوق الذي لا يناسب الإيمان ، الذي يتحلّى ويتجمّل به المؤمنون البررة ، لذا نهى الله عز وجل في هذه الآية الكريمة عن هذه العوامل المهلكة المكدرة لصفو المجتمع ، والتي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

الابن : نلحظ أن ما سبق كله كان أوامر أمرنا الله تعالى بالإتيان بها ، بينما كل ما في هذه الآية نَواهٍ نهانا عن إتيانها .

الأب : أحسنت في هذه الملاحظة الدقيقة ، لهذا فلتعلم أن كثيراً من الأوامر تدخل في إطار الفرض الكفائي ، يعني أنه إذا قامت بتنفيذها جماعة من المسلمين سقط الفرض عن الباقين ، بينما النواهي هي كلها تدخل في مفهوم الفرض العيني ، بمعنى أن كل مسلم مطلوب بعينه الكفّ عنها .

البنت : قبل الشروع في تفسير الآية ، واستخراج ما تضمنته من معانٍ ، أريد الاستفسار عن معاني بعض الألفاظ . ما معنى : السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ؟

الابن : السخرية : هي الاستهزاء والنظر إلى المسخور منه بعين النقص والإزدراء به قولاً أو فعلاً بحضرته .

اللّمــز : هو الطعن في العرض والشرف والكرامة ، وذكر المعايب قصد الشماتة في حضرة المعنيّ ، ومن معانيها الهمز والغمز .

التنابز بالألقاب : أي لا تداعوا بالألقاب ولا تعايروا بها .

الأب : لا تسألوني عن مناسبة نزول الآية . فقد ذكرت في ذلك عدة روايات ، ثم إن العبرة في مثل هذه المواطن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الابن : لكن معرفة المناسبات تعين على فهم المعنى وتركيزه في القلب .

الأب : مادمت مُصراً على ذلك فإنني أذكر إحدى هذه الروايات .

قيل نزلت ﴿ولا نساء من نساء﴾ في نساء النبي ﷺ إذ كنّ سخرن من أم سلمة وعيّرنها بالقصر ، وأشرن إليها بأيديهن . أرجو أن تنتبهوا إلى النكتة في هذه الرواية التي اخترتها عمداً .

الأم : فهمت أن السخرية تكون بأقل ما يصدر من الإنسان من فعل وقول إذا كان يقصد الإزدراء والتحقير ، فالأعمال بالنيات ، فلنحذر الأعمال البسيطة ، والنوايا الخفيّة إذا كانت في هذا السبيل

الأب : انظروا إلى هذه الإشارة الخفيّة . فلا غرابة في ذلك فإن السخرية تكون أكثر ما تكون في مجتمع النساء . ولهذا خصّهن الله تعالى بالذكر في هذه الاية ﴿ولا نساء من نساء﴾ بعد أن ذكر ﴿قوم من قوم﴾ .

فالقوم في أحد معانيه يعني الرجال والنساء ، والقرآن نفسه ــ في أغلب خطاباته ــ يخاطب الرجال والنساء معاً بالذكورة ، ومع ذلك نص عليهن في هذا الموطن . فالتخصيص هنا جاء لعلة .

الأم : لماذا هذا التعريض ــ دائما ــ فإن الله تعالى فضلكم علينا لتعلّمونا لا لتعيّرونا . ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (الآية ٣٤ سورة النساء) . فحقّ القوامة يقابله واجب التعليم والتربية .

الأب : معذرة ، إنني لم أقصد إهانتك ، وإنما رميت إلى التنبيه إلى دقة القرآن في التعبير .

الابن : أرجو أن لا يكون تأثر أمي بهذه الإشارة سبباً في حرماننا من تقديم الشاي إلينا ، فطالما تطلعت عيوننا إلى ذلك الإبريق وشغلنا عن تتبع الموضوع بكل عناية وتركيز .

الأم : أبداً ، لم أجد في قلبي منكم ولا من هذه الأحاديث الشيّقة المفيدة ، إنما قصدت أنا بدوري إلى تنبيه الرجال إلى واجب تربية نسائهم وتعليمهن ، هذا الواجب الذي طالما أهملوه وتناسوه ، مع أنهم استفادوا من حقّ القوامة عليهن . فهاكم ما طلبتم من الشاي والحلويات .

البنت : شكراً لكم على هذه الدردشة ، وعلى هذه المداعبات ، والآن أسألك أبتاه عن سبب ذكر الله تعالى القوم والنساء بالتنكير ؟

الأب : ذكر الله بالتنكير ليكون الحكم عاماً يشمل كل الطبقات والفئات والأشخاص . لا يسخر غني من فقير ، ولا كبير من صغير ، ولا عالم من جاهل ، ولا شريف من وضيع النسب ، ولاسيّد من مسود ...

الابن : عسى أن يكون هؤلاء المسخور منهم أفضل وخيراً من الساخرين ، وقد يكونون كذلك عند الله ، فموازين الله تعالى غير موازين البشر ، والمظاهر لا تدل دائماً على المخابر ،

وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

البنت : لهذا قيل : «فينبغي أن لا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه ، أو صغيراً في وظيفته ، أو فقيراً في مظهره ، أو متواضعاً في شهادته ، أو ضعيفاً في حاله . فلعلّ هذا الذي تسخر منه أيها الإنسان وتستهزىء به ، لعلّه يكون أخلص منك ضميراً وأنقى قلباً ، وأطهر ذيلاً ، وأصفى روحاً ، وأسمى خُلقاً ، وأرفع منزلة عند الله منك ، فلا تظلم نفسك بتحقير من وقّره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظّمه الله تعالى وأكرمه برضاه» .

الأب : ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به ، لو أقسم على الله لأَبَرَّه» .

الأم : يروى أن الرِّجل يوماً خاطبت الرأس في البدن ، فقالت : أيها الرأس لا تشمخ بأنفك عليَّ ، ولا تترفّع بما وهبك الله من سمع وبصر ولسان ، ولا تغترّ بعلوّك على سائر أعضاء البدن ، وإّياك أن تسخر مني وتهزأ بي وتقول إنك موطن الحذاء ، ومداس الأقذار ، فإنك أيها الرأس لولاي أنا الرِجْل ما سرتَ على الأرض .

الأب : هكذا يجب أن يكون المجتمع نظيفاً يتجنّب هذه الأخلاق من الحقارة والإزدراء والاستهزاء ، فاحتقار أي عضو في المجتمع معناه إبعاده عنه وقطعه عن بقية الأعضاء ، ثمّ تهميشه ، وتعطيل طاقته ، كان المفروض أن تقدم عملاً ومجهوداً للمجتمع تماماً مثلما يحدث للجسم إذا قطع عنه أو منه عضو لاحتقاره .

الابن : هكذا تكشف السخرية عن انحطاط في الخُلق ، ونقص في العقل ، ومرض في القلب ، وضعف في الإيمان .

الأب : لقد أثرت هذه التوجيهات في نفوس بعض السلف ، وخافوا من الإتصاف بالصفات الرذيلة التي ذكرتها الآية ، فأصبحوا يراقبون أنفسهم مراقبة شديدة ، حتى لا يقعوا فيما نهى الله عنه . قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلاً يرضع عنزاً فضحكت منه خشيت أن أصنع الذي صنعه .

الأم : وعن عبدالله بن مسعود قال : البلاء موكل بالقول ، ولو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلباً .

البنت : لماذا قال تعالى ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ ولم يقل ولا يلمز بعضكم بعضاً ؟

الأب : لأن الله يعتبر المؤمنين نفساً واحدا وجسداً واحداً ، إذا مسّ عضو واحد منهم فكأنما مسّ الجميع . والحديث مايزال متصلاً ومتواصلاً في الوحدة والاتحاد ، ومن جهة ثانية فإن

لمز الأخ أخاه يسبب في الرّد عليه بالمثل . فيكون اللامز لأخيه هو في الحقيقة لامزاً لنفسه ، هذا على غرار قوله تعالى : ﴿...وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (الآية ٢٩ سورة النساء) .

الابن : وقد بيّن هذا المعنى في آية أخرى بشكل بارز «وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ (الآية ١٠٨ سورة الأنعام) .

الأم : انظروا إلى حرص الإسلام على حفظ الكرامة . نهى عن سبّ المشركين ، حتى لا يكون ذلك سبباً في سبّ الله تعالى .

البنت : إنه القرآن في سموّ معانيه ، وبلاغة تعبيره ..
طيّب ، وما معنى : ولا تنابزوا ؟

الأب : أي لا تتعايروا بالألقاب القبيحة ، فالقرآن ينهانا أن ننادي شخصاً بلقب لا يرضاه . فمخالفة هذا التوجيه تسبّب العداوة والبغضاء ، فيحذر الذين لا يتقيدون بهذا النداء .

الابن : هذا سلوك يكشف عن دناءة في النفس ويعكس حالة سيئة يتصف بها الإنسان .

الأم : صحيح إنَّه لا يقدم على ذلك إلاَّ من كان سيِّء الطوية ، متصفاً بالعيوب .

البنت : قال بكر بن عبدالله المزني : «إذا أردت أن تنظر إلى العيوب جمّة ، فتأمل عيّاباً ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب

الابن : وقيل : «من سعادة المرأة أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره» .

الأب : وقال الشاعر :

المرء إذا كان عاقلا ورعا أشغله عن عيوبه ورعه
كما السقيم المريض يشغله عن وجع الناس كلهم وجعه

الأم : لذا اعتبر الله تعالى هذه الأعمال التي أشارت إليها الآية ظلماً لابد من التوبة منها . فالظلم مرتعه وخيم كما قيل : «أسرع الأشياء صرعة الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم» ، وقد خاطب الله تعالى هؤلاء بإشارة البعيد ﴿أولئك هم الظالمون﴾ أي المطرودون المبعدون .

الابن : فنظراً لشناعة هذه الأعمال ، وهذه الأخلاق السيئة : السّخرية ، اللّمز ، التّنابز بالألقاب ، فإن الله يحرّك فينا عاطفة الغيرة على أنفسنا ، فيذكّرنا ويرجعنا إلى إيماننا الذي آتصفنا به ، ولأن هذه الأعمال تخرج الإنسان من الإيمان إلى الفسق ، والفاسق مآله النار إن لم يتب إلى ربه .

البنت : وقد عمد إلى أسلوب الذم (بئس) ليسخر من تصرفاتنا وسوء تدبيرنا .

الأب : لكن الله رحيم بنا ــ دائماً ــ رؤوف يفتح باب التوبة والأوبة إليه ، فهو يحب لنا الخير . فإذا صدر من إنسان مثل هذه السلوك وآستغفر من ذنوبه يجد الله غفوراً رحيماً .

الابن : وكيف تكون التوبة من هذه الذنوب ؟

الأب : تكون أولاً : بالإقلاع عن المعصية ، ثانياً : بالندم على آقترافها ندماً حقيقياً ، ثالثاً : المعاهدة على عدم العودة إلى الذنب ثانية ، رابعاً : ردّ المظالم إلى أصحابها ، والعمل على ترضيتهم بما يزيل عنهم الضرر الذي لحقهم بسبب هذا الظلم ، أو طلب العفو منهم . ومن لم يفعل ذلك استوجب سخط الله وحُرِمَ المغفرة .

الأم : شكراً لكم جميعاً على هذه المسامرة المهمة ، وعلى هذه المعلومات القيّمة ، دمتم في رعاية الله وحفظه .. والسلام عليكم ورحمة الله .

** ** **

الأم : رأينا كيف أن الله كان حريصاً على أن يبقي المجتمع الإسلامي محافظاً على سلامته واتحاده . فأمر بإصلاح ذات البين ، إذا وقع نزاع ، وأمر بالإصلاح والمصالحة ، إذا حصل قتال ، ونهى عن أسباب الشقاق التي تثير الفتن ، وهي التعيير والسخرية واللّمز والّتنابز بالألقاب .

الأب : فعلاً هذا ما تناولناه ليلة أمس ، لكن أين البنت ، فإني لا أراها معنا هذه الليلة ؟

الابن : لعلها ذهبت لتنام ، فربما آستغنت عن الإستفادة والتعلّم .

البنت : (تدخل وبين يديها صينية الشاي والحلويات) سامحك الله يا أخي ، لماذا سوء الظن هذا بي ؟ إني آثرت أن أخدمكم ــ الليلة ــ بنفسي ، فقلت لأمي إن تحضير الشاي والحلويات عليَّ هذه المرة . أردت أن أسهم في عمل البيت إلى جانب التعلم والتحصيل .

الابن : سامحيني يا أختي على ما بدر مني ، فما كان ينبغي أن يصدر مني هذا التصرف ، ونحن حول مائدة القرآن ، ننهل من توجيهاته ما يثبّت إيماننا وينمّيه .

البنت : سامحتك أخي مادمت قد آعتذرت وتفطّنت إلى خطئك ، فالإنسان نسّاء وخطآء ، والعاقل هو الذي يتذكّر إذا ذُكِر ،

ويتوب حين يُذنب .

الأب : بورك فيكما وفي أخلاقكما ، إن ذلك من بركة الإيمان التي أنتجت هذه النتائج الحسنة ، وبالمناسبة فإني أذكر ما جاء في القرآن في موضوع الظنّ ، وما تضمّنته الآية الموالية لما تناولناها من قبل .

الأم : آسمحوا لي قبل ذلك أن أقدّم شكري لبنتي العزيزة على ما قدّمته لنا من الشاي والحلويات ، وعلى إتقانها لعملها ، وهذا نابع من شعورها بواجبها باعتبارها أنثى لها فروض في البيت . إنني أتفرّس فيها الأم والمربِّية والمعلِّمة الناجحة في حياتها إن شاء الله .

الأب : أقرأ عليكم الآية التي أشرت إليها آنفاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الابن : هذه الآية وما فيها من توجيهات كلها تدعو إلى السِّتر على المؤمن حفاظاً على حرمته وكرامته .

البنت : ما هو الظن الذي نُهينا عنه ؟

الأب : لتعلمي أن سوء الظن مدعاة إلى التحقير والسخرية واللَّمز وهو ما نُهينا عنه في الآية السابقة ، لأنه يؤدّي إلى آمتلاء القلوب غيظاً وحقداً ، وإلى إثارة الفتن ، ثمّ زعزعة المجتمع

وزرع القلاقل فيه .

الابن : وقد سماه الرسول ﷺ أكذب الحديث ، في قوله : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» .

الأب : إن الظن أمر خفي لا يطّلع عليه كثير من الناس ، فقد يظن أحد بأخيه سوءًا دون أن يحرِّك لسانه ، ولا يبدي حركة تكشف عنه . وقد نُهينا عن الظنون السيئة والخواطر القبيحة ، حتى لا تكون تلك عادة فينا ، فتختلَّ حياتنا ، وتتصدَّع وحدتنا .

البنت : فالله تبارك وتعالى أراد تطهير ضمائرنا ومخابرنا ، لتكون مثل مظاهرنا نظيفة كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة . كل ذلك حفاظاً على تماسك المجتمع ، ومحاربة لكل ما ينال من وحدته .

الابن : إن ظناً سيئاً واحداً برجل بريء قد يؤدي بالمتسبِّب فيه إلى النار ، بسبب ما قد يقترف في حقه من ظلم .

الأب : لقد أُمْرنَا بدفع الظنون السيئة التي يلقيها الشيطان في قلوبنا كما جاء في الحديث النبوي الشريف . روى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال : «قال رسول الله ﷺ ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن . فقال رجل : وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ فقال رسول الله ﷺ : إذا حسدت فآستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقِّق ،

وإذا تطيّرت فأمض» .

الأم : الحمد لله ! لقد فرّجت عن قلبي زوجي العزيز ، فكم كنت مهمومة ، لما سمعته عن عاقبة الظن والوعيد الشديد لمن ينتابه هذا الهاجس ، فإن ظنوناً كثيرة تخطر في قلبي ، غير أني ـــ والحمد لله ـــ لا أنفذها ولا أحقّقها . فهذه نعمة من الله عليَّ إذ كنت أطبق شرع الله بالفطرة ، وقد اطمأنَّ قلبي بالاطلاع على هذا الحكم . جزاك الله عنا خيراً .

الأب : هذه رحمة الله تعالى بعباده ، يتجاوز عن كثير من أخطائهم ، ولا يحمّلهم ما لا طاقة لهم به ، فيعفو عن حديث النفس والخواطر والشك الزائل .

الابن : وما معنى ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ مادام الله ينهانا عن الظن ، فلماذا يستثني بعض الظنون ؟

الأب : أكثر الظنون سيئة ، أمرنا بإجتنابها ، لكن هناك ظنوناً حسنة يمكن تحقيقها ، بل أحياناً تكون واجبة التنفيذ . وقد قصّ الله مثلاً لها في حادثة الإفك ، قال تعالى : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (الآية ١٢ سورة النور) .

فالمؤمنون لم يروا كلهم عائشة حين تأخّرت ، يقودها صفوان بن المعطل ، فكان على هؤلاء أن يظنوا خيراً ويؤوّلوا خيراً الخبر الذي سمعوه .

البنت : على المسلم أن يتأدّب بهذا الأدب ، فيظن بأخيه المؤمن خيراً ، حين يأتيه خبر عنه ، فيدفع ما يسمعه عنه من شر يمكن أن ينسب إليه ، حتى يثبت العكس ، فهذا ظن مقبول .

الأب : من الظنون الحسنة الظن في أمور المعاش ، الظن في الأحكام الشرعية غير الثابتة بأدلة قطعية .

الابن : أظن أنه يدخل فيما ذكرتم الظن في أحد يريد بآخر سوءًا ، حتى يحترس ويأخذ حذره منه .

الأب : هذا من تمام الفطنة والكياسة ، فالمؤمن فطن كيّس ، لكن بشرط أن لا يقدم على تنفيذ أمر بهذا الظن فقط ، ولا يدر حكماً به ، حتى يتحقق منه .

الأم : حقيقة ما أدق القرآن في التعبير ، وما أعدل الله في الأحكام وفي الجزاء ، وما ألطف الله تعالى بعباده ، إنه والله يريد لهم الخير ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

الأب : المهم أننا أمرنا بأن نطهّر قلوبنا وضمائرنا من الظنِّ السيءِّ ، ومن الهواجس والشكوك ، حتى لا نقع في الإثم .

الابن : ورد تعليقاً على هذه الآية : «بهذا يطهرِّ القرآن الضمير من داخله أن يتلوّث بالظن السيءِّ ، فيقع في الإثم ، ويدعه نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك ، أبيض يكنُّ لأخيه المودّة التي لا يخدشها ظنُّ السوء ، والبراءة التي

لا تلّوثها الرّيب والشكوك ، والطمأنينة التي لا يعكّرها القلق والتوقع ، وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون» .

الأب : حقاً ما أروح الحياة حين تزول منها الظنون السيئة ، ثمّ يجانبه التجسّس ، وتتبُّع عورات المسلمين ، لذا جاء النهي عن التجسّس مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بآجتناب الظن . والتجسُّس يكون في كثير من الأحيان حركة تالية لسوء الظن .

البنت : هكذا نُهينا عن التجسُّس على إخواننا المؤمنين ، بل من حقّ المسلم على أخيه المسلم ستر عوراته ، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة .

الابن : وجدت رواية عن رسول الله ﷺ يقول : «إنك إن آتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» رواه أبو داود .

الأب : وفي هذا التوجيه حفظ لكرامة المسلم ، ومنع لإشاعة الفاحشة ، وعون للمقترف للذنب على العودة إلى ربه ، بدل التمادي فيه والمجاهرة بما اقترفه ، إذ لا يجد مشقة ولا صعوبة في التوبة ؛ لأن الناس لا يعرفون عن ذنوبه شيئاً ، أو يكون القليل فقط هم الذين يعرفون عنه ذلك .

الأم : والله إنه لتوجيه سليم وتربية عالية للنفوس ، وعون على السير

في طريق الخير ، وعلى الأوبة لمن أخطأه .

الابن : إذن أمرنا أن لا نتجسَّس على الناس في بيوتهم ، ولا نتجسس عليهم في السِّر ، وهو الاستماع إلى حديث الناس وهم كارهون .

البنت : كم يخطيء الناس في هذا المجال ، فيسترقون السمع ، ويتصنَّتون لأحاديث الآخرين بمختلف الوسائل والأسباب .

الأب : في السِّير وأخبار الماضين والصحابة الكثير من الأمثلة التي تكشف عن الإلتزام بهذا الأدب . فسيدنا عمر بن الخطاب مثلاً خرج مرّة يعسّ ليلاً مع عبدالرحمن بن عوف ، فسمع حركة في دار مغلقة على أصحابها ، فخطر بباله أن فيها أناساً يشربون الخمر ، فهمَّ بالدخول عليهم فقال له عبدالرحمن : لا ، قد نهانا الله عن التجسُّس ، فقال له عمر : صدقت ، فلم يفعل .

البنت : حُكِيَ عن الأعمش عن زيد قال : أُتي ابن مسعود برجل فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال عبدالله : «إنَّا نُهينا عن التجسس ، ولكن أن يظهر لنا شيء نأخذ به» .

الابن : وعن أُمامة عن النبي ﷺ قال : «إن الأمير إذا آبتغى الريبة في الناس أفسدهم» .

الأم : بهذه الآداب يعيش الناس مطمئنين على أنفسهم وبيوتهم ، آمنين على أسرارهم . إن الناس مأمورون بمعاملة بعضهم

البعض حسب ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقَّب أخاه ، ولا أن يتوقَّع منه خُلقاً أو تصرَّفاً هكذا ظناً بالسوء .

الابن : من أحسن ما قرأته في مطالعاتي تلخيصاً لما مرّ بيانه كمن هذه الآية قول سعيد بن المسيب : قال كتب إلَيَّ بعض إخواني : «أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظننَّ بكلمة خرجت من امرىء مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملا . ومن عرّض نفسه للتهم فلا يلومنّ إلاَّ نفسه ، ومن كتم سرَّه كانت الخيرة في يده ، وعليك بإخوان الصدق ، فكن في اكتسابهم ، فإنهم زينة في الرخاء وعدّة عند عظيم البلاء ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلاَّ الأمين ، ولا أمين إلاَّ من خشي الله تعالى ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب» .

الأب : إن هذه الفقرة تشرح ــ حقاً ــ روح الآية ، وتتضمن كثيراً من المعاني التي ناقشناها . فبارك الله في مطالعاتك ، دم على هذه الطريقة ، وفي هذا السبيل ، فالتوفيق حليفك إن شاء الله .

الأم : في هذا القدر الليلة كفاية .. والسلام عليكم ورحمة الله .

** ** **

الأب : مايزال الحديث متصلاً فيما يفسد العلاقات الاجتماعية ، ويوهن الروابط ، ويثير الفتن . فبعد سوء الظن والتجسُّس تأتي الغيبة التي تقترن غالباً بهما ، وتسير معهما . هذه الغيبة التي قال عنها الرسول ﷺ إنها تنقض الوضوء وتفطّر الصائم وتهدم الأعمال هدماً .

الابن : فما هي الغيبة أبتاه ؟

الأب : هي كما قال الرسول ﷺ : ذكرك أخاك بما يكره . ويعتبر غيبة ما كان الذكر فيه صراحة أو كتابة أو إشارة أو رمزاً . وكل ما اغتيب فيه شخص سواء تعلّق ذلك بدينه أو دنياه . وهناك من العلماء من آعتبر الغيبة من الكبائر .

البنت : هل يكون ذلك على الاطلاق ؟ ، بمعنى إذا ذكرت في غيبة أحد عيباً يتصف به ، هل أعتبر مغتاباً ؟

الأب : نعم ، هذه هي الغيبة الحقيقية ، أما إذا ذكرت شيئاً من العيوب أو تكلمت في أخيك أو أختك بما ليس فيهما فقد بهتهما . بل هناك من العلماء من يعتبر تعيير أخ في محضره وذكر ما فيه من العيوب هو أيضاً غيبة حكماً .

الأم : هذا معقول جداً ، لأن المغتاب قد يكون صاحب نفوذ أو قوّة أو جاه ، بينما الذي تُكَلِّم فيه يكون ضعيفاً لا يقوى

على الردّ ، وعلى الدفاع عن نفسه ، فتداس كرامته ، ويصاب في عرضه ، والغيبة حرّمت ؛ لضمان الحرمة والكرامة .

الابن : يبدو أن المستمع للمغتاب ، الذي لا يظهر استنكاره يكون أيضاً مذنباً ، لأنه بتصرفه هذا يشجع على انتشار الغيبة .

الأب : صدقت في ذلك يا بني ، فإن المغتاب لو لم يجد آذاناً صاغية لما تكلّم أو تمادى في فعلته تلك .

ذكر الطبري رؤيا ميمون بن شاه ، قال ميمون : بينما أنا نائم إذا بجيفة زنجي وقائل يقول : كل يا عبدالله ، قلت وَلِمَ آكل ، قال بما اغتبت عندك فلان ، قلت والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً . قال : لكنك استمعت ورضيت . وكان ميمون بعد ذلك لا يدع أن يغتاب عنده أحد .

الأم : هكذا فليكن المسلم ، إذا ذُكِّرَ بشرع الله امتثل وطبّق . ليت المسلمين كلهم ينصاعون لأوامر الله ، فيسود الأمن والرخاء في المجتمعات الإسلامية .

الأب : في مقابل ذلك وعد وبشرى لمن دافع عن أخيه المسلم ، ودفع الغيبة من مجالس الناس ، وما أكثرها . روى أن النبي ﷺ قال : «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبَّه ، حبسه الله تعالى على

جسر جهنم حتى يخرج مما قال» .

الابن : هكذا أُمِرْنَا بالتَستُر على المسلم محافظة على كرامته وحرمته ، قال الشاعر :

لا تكشفنَّ مساوي الناس ماستروا فيهتك الله ستراً من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

الأب : وليس المراد بالستر هو الرضى بالفاحشة ، والمعاصي ، أو عدم القيام بالواجب في النهي وتغيير المنكر ، إنما المراد هو النهي عن التشهير والفضح مع القيام بواجب النصح والإرشاد بالتي هي أحسن في ستر وسرِّية ما أمكن .

البنت : نحن تعرفنا على وعيد المستمع للغيبة ، الذي لم يستنكر ، وعرفنا الوعد الذي ضربه الله تعالى للواقف في وجه المغتاب ، ولكن ما هو وعيد المغتاب نفسه ؟

الابن : يكفي شناعة به وتحقيراً له ما وصفه الله به

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾

الأب : في هذا الوصف بيان لمكانة المغتاب عند الله من الحقارة والدناءة ، فلم يكتف القرآن بوصفه بأنه آكل لحم الإنسان ، أضاف أن هذا المأكول ميتٌ ، أي جيفة . للمغتاب أن يتأمل في هذا التشبيه ليعرف مدى الجرم الذي اقترفه ، وشناعة ما أقدم عليه . إن كان له حسّ إنساني ، وذوق فطري .

البنت : ومن براعة القرآن في التعبير ، والدقة في التصوير ، بيان حقيقة ما يُقْدِم عليه ، وتحسيس أصحابه به ، إذ ذكر أن هؤلاء المغتابين يكرهون هذا العمل ، لا يحبون أن يؤكل لحم الأخ الميت ، أو يكرهون أكل الميتة ، أو يكرهون أن يغتابهم الناس ، كل هذه المعاني تحتملها العبارة ﴿فكرهتموه﴾ ، إذن فالقرآن يخاطبنا : آبتعدُوا عن غيبة الأخ المسلم .

الابن : وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم .

البنت : بئس المنقلب منقلب هؤلاء ، ليت القوم يعقلون ويتذكرون .

الأم : التاريخ مليء بالقصص التي تجسد هذه المعاني ، وتبين هذا المصير . فيها عبر لم يعتبر . هناك قصة المرأتين اللتين جلستا تغتابان الناس ، وكانتا صائمتين ، فدعاهما النبي ﷺ وقال لهما : قيئا فقاءتا دماً ولحماً .

الابن : وقصة الرجلين اللذين قال لهما الرسول ﷺ : أرى على أفواهكم أثر لحم ودم أو فاكهة . أو كما قال . فقالا : ما أكلنا لحماً يارسول الله ، فقال ما كنتما فيه من الغيبة شر من ذلك .

الأب : وعلى المسلم الذي يبلغه أنه آغتيب أن لا يردّ بالمثل ، بل عليه أن يتخلّق هو بدوره بخُلق الإسلام ، متمثلاً بقول المقنّع الكندي :

وان الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدّا
فإن أكلوا لحمي وَفَرْت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بي زجرت بهم طيرا تمرُّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس كريم القوم من يحمل الحقدا

الأم : هذا هو خُلق القرآن ، ما رأيكم لو نغيّر الجو ، وننظِّفه من اللحوم الميتة ، والجيف المنتنة ، ونستبدل بها رائحة النعناع ، وطعم الشاي ، وحلاوة المرطبات .

الأب : حسناً تفعلين أيتها الزوجة الصالحة .

البنت : (بعد فترة استراحة) لنعد إلى الموضوع ثانية فأسأل عن أسباب الغيبة ؟

الابن : أسبابها نفسية غالباً ، قد يكون سببها ثورة غضب وغيظ تملأ قلب شخص فيحاول إفراغ نفسه منهما ، فيلجأ إلى الغيبة . وقد يكون دافعها الحسد والحقد . كما أن للاحتقار والإزدراء دورهما في الغيبة ، إذ يحاول المغتاب ــ أحياناً ــ الحطّ من غيره ، بسرد مثالبه وعيوبه ، ليرفع من نفسه . وقد يكون دافعها مجاملة الرفقاء والأصدقاء ، أو بعض من تربطهم بالمغتاب مصلحة ، فيجامله بالنيل من شخص ما .

الأم : نلحظ أن كثيراً من أسباب الغيبة أخلاق نفسية سيئة ، كما أن الغيبة تكون نتيجة خبث يصيب النفس وداغلة تسكن القلب .

الأب : لهذا علينا تجنُّب الأخلاق السيئة ، وتربية نفوسنا على الخِلال الحسنة والسجايا الحميدة .

البنت : يفرز الغيبة أيضاً فراغ ولعب ولهو وهزل ومفاكهة ومزاح . لذا فلنحذر من اضاعة الوقت بالقيل والقال ، ولنتجنَّب المزاح الكثير ، والمفاكهة الخارجة عن حدود الآداب .

الأب : بقي لي أن أشير إلى أن من الغيبة ما يجوز ، وهو في الحقيقة لا يسمى غيبة . وذلك حين يكون الكلام في الذين عرف عنهم الفسق ، الذين تكون في سيرهم ريبة وذلك بنيّة : «اذكروا الفاسق بما فيه ليعرفه الناس» .

يفعل ذلك ليحتاط الناس منهم في شهاداتهم ، ومواقفهم ، أو في إسناد مهمات إليهم . ووضع الثقة فيمن يقضي لهم مآربهم . بل يكون ذلك واجباً إذا كانت لمصالح المجتمع والمسلمين علاقة بهم .

الابن : أحسنت أبي في هذا التوضيح ، إنه لمما يزيدنا تفقهاً في ديننا . فمن أراد الله به خيراً فقهه في دينه وألهمه رشده .

البنت : وروي عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليس لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر .

الأب : أخيراً أنظروا معي إلى هذه الخاتمة التي يختم بها الله تعالى كل توجيهاته ، إنه يختمها بتذكيرنا بالتقوى ، وأن كل أعمالنا التي نأتيها مرتبطة بها ، فإن امتثلنا أوامر الله كنا متقين ، وإن خالفناها كنا غير متقين . فلينظر أحدنا أين يضع نفسه . ومع ذلك فحتى لو عصيناه فإنه توّاب رحيم بنا إن رجعنا إليه واستغفرناه من ذنوبنا .

الأم : أيَّة رحمة أكثر من هذه ، وأي صفح فوق هذا . إن الله تعالى يحب الخير لكلّ الناس ، ويمنحه لهم إلاَّ من أباه . دمتم في رعاية الله وحفظه .. والسلام عليكم ورحمة الله .

** ** **

الأب : بعد النداءات الخمسة التي أطلقها الله تعالى لاصلاح المجتمع المسلم ، ينتقل إلى الأمر العام الذي يصلح البشرية جمعاء فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

الابن : كان العرب ــ قبل الإسلام ــ يعيشون في ظلام دامس من الجهل والعصبية والتفاخر بالأنساب والتناحر .

البنت : لهذا لما بزغ نور الإسلام حارب هذه الهمجية ، وهذه الأخلاق الفاسدة ، ونزلت هذه الآية الكريمة ، لتخاطب البشرية جمعاء ، ولتقرر مبدأ أصيلاً من مبادىء الإسلام ، وهو المساواة بين الناس ، فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لغني على فقير ، ولا لكبير على صغير إلاَّ بالتقوى .

الأب : روي أن رجلاً قال لسيدنا عيسى عليه السلام : أي الناس أفضل ؟ فأخذ قبضتين من تراب وقال ، أي هاتين أفضل ؟ الناس خُلقوا من تراب ، فأكرمهم أتقاهم .

الابن : إن هذا النداء يشير إلى الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل .

إنها ليست التناحر والخصام ، وإنما هي التعارف والوئام ، فأما آختلاف الألسنة والألوان ، وآختلاف الطباع والأخلاق ، وآختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف ، والوفاء بجميع الحاجات» .

البنت : آنظروا إلى حكمة الله في هذا الاختلاف ، إنه آختلاف للتعاون وآختلاف لتلبية حاجات الناس في هذه الدنيا ، الصعبة تكاليفها ، والكثيرة حاجاتها ، إذ لا يمكن للشخص الواحد ولا للجماعة الواحدة ، التي تتميَّز أو تتصف بصفات معينة خاصة ، وبمؤهلات معينة خاصة أيضاً أن تتحملها وحدها .

الابن : « ليس للون والجنس واللغة والوطن ، وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هناك ميزان واحد تتحدَّدُ به القيم ، ويعرف به فضل الناس ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والكريم حقاً هو الكريم عند الله ، وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين ﴿إن الله عليم خبير﴾ » .

البنت : والقرآن عبَّر بعبارة ﴿لتعارفوا﴾ لينفي وينكر على الناس كون آختلافهم هو للتناكر والتباغض والتحاسد والتقاتل ، وقد بيّن في آية أخرى وآمتنَّ على عباده في هذا الاختلاف ، ليعوا ما هم فيه من فضل وخير ، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ

خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الآية ٢٢ سورة الروم) .

الابن : وقد بيّن الله تعالى في آية أخرى أنه قسّم بين الناس معيشتهم في الحياة الدنيا ، ليُسَخِّر كل واحد أخاه في خدمته ، وقضاء مآربه ، وبهذا تتكامل الحياة ، ولا تتعطل أية عجلة منها : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الآية ٣٢ سورة الزخرف) .

الأب : لا يفهمنّ أحد أن هذه الآية تدعو إلى الطبقية ، ولا القسمة هنا تعني المال فقط ، بل تعني القسمة في كل شيء في المال والصحة والجاه والذكاء ، والعلم واللون والطباع والقوة ... فلو استوى الناس في هذه الأشياء لما عمرت الأرض ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له ، تبعاً لمستواه وطبيعته ومؤهلاته ، إذن فلا طبقية ولا مساواة للناس في المؤهلات .

الأم : بورك فيكم وفي مطالعاتكم ، وفي اهتمامكم بدينكم ، خذوا كؤوس الشاي لتقووا على تحمل عناء السهرة ، التي يبدو أنها ستطول هذه الليلة ، ولتتمكنوا من مناقشة هذا الموضوع المهم الذي هو محور جلستنا .

الأب : في نداء الله تعالى : ﴿ياأيها الناس﴾ بعد النداءات الخمسة

السابقة المصدرة بيا أيها الذين آمنوا تعبير لافت للنظر نترك للشيخ بيوض توضيحه .

الأم : هلاَّ سمحتم لي بإعادته عليكم كما سمعته في المسجد .

الأب : تفضلي أيتها الزوجة الصالحة ، فأنت مثال للمرأة المسلمة المتشبعة بروح الإسلام ، الموفِّقَةِ في عملك بين القيام بشؤون البيت مربيةً للأولاد ، وراعية لأمور الزوج ، وبين التثقّف والتفقّه في الدين ، لتوجيه الأبناء توجيهاً إسلامياً صحيحاً . ولعل السرَّ في كل ذلك ، وفي نشأتك هذه النشأة الصالحة ، يرجع إلى ارتيادك المسجد كلما سمحت لك الظروف بعد الفراغ من أعمال المنزل .

الأم : شكراً لك أيها الزوج الصالح على هذا الإطراء ، وعلى هذه الثقة .

قال الشيخ بيوض حين فسّر هذه الآية الكريمة : جاء هذا الأمر العام تعلقاً بالبشر جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ؛ إذ من المعلوم أن المجتمع المسلم يكون مجاوراً أو متصلاً بمجتمعات أخرى كافرة ، ومن طبيعة هذه الأرض أن يختلط بعضهم ببعض ، مؤمنهم بكافرهم ، يهوديهم بنصرانيهم ، لذا خاطب الناس جميعاً و لم يخص المؤمنين فقط كما فعل في النداءات السابقة .

البنت : أفهم من هذا أن الله تعالى أراد اشراك هؤلاء غير المسلمين في الخطاب ، حتى لا يفهمنَّ أحد أنهم مهمَشُون ، وأن الله

لم يرد لهم الخير حين ينساهم ، ــ حاشا الله ــ فالله «دائماً» يحب الخير لعباده ، وما هو بظلاَّم للعبيد .

الابن : كما أفهم أنا أيضاً أنّ في هذا النداء تقريراً لمبدأ معاملة الناس معاملة حسنة ، مهما تكن ديانتهم ، إلاَّ في الأحكام الشرعية التي بيّنتها الشريعة . وفي هذا تأليف لقلوبهم ، وتقريبهم إلى الإسلام ، وتحبيبه إليهم .

الأب : فكم من المشركين والكفار الذين دخلوا الإسلام ، بفضل المعاملة الحسنة التي وجدوها من المسلمين ، فلنجتهد في هذا السبيل ، لننشر الدعوة ونبلّغ الرسالة .

البنت : شكراً لكم على هذه التوضيحات ، اسمحوا لي وتكرموا عليَّ بإفادتي بمعنى قوله تعالى : ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ .

الأب : يذكر الشيخ بيوض : أن التعبير يحتمل معنيين كل واحد يكمل الثاني ، الأول يعني أن الذكر هو آدم ، والأنثى هي حواء . والمعنى الثاني : اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون بقاء النوع الإنساني مرتبطاً باتصال الجنسين ، كما اقتضت حكمته ذلك في الأشياء الأخرى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الآية ٤٩ سورة الذاريات) .

البنت : فالتعبير إذن يعني أن أبانا الأول هو آدم ، وأمنا الأولى هي حواء ، ويعني أيضاً أن كلاً منا ابن رجل وامرأة .

الابن : إذن ، فلِمَ التفاخر ولِمَ التعالي ، ولِمَ التكبر ، كما قال

ابو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ لرجل : لِمَ تتكبر على الله وقد نزلت من مجرى البول مرتين ، مرة من صلب أبيك ومرة من رحم أمك .

الأب : إنا نُهينا عن التكبّر الذي يسببه ــ عادة ــ الشعور بالرفعة في النسب والجاه . فعن حذيفة قال ، قال رسول الله ﷺ : «كلكم بنو آدم ، وآدم خُلِقَ من تراب ، ولينتهينَّ قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونُنَّ أهون على الله تعالى من الجعلان» .

البنت : ولله درّ سلمان الفارسي حين قال :

أبي الإسلام لا أباً لي سواه إذا آنتسبوا لقيس أو تميم

الابن : وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حوّاء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة وأعظم خُلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب يفاخرون به الطين والماء
ما الفضل إلاَّ لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاَّء
وقدر كل امرىء ماكان يحسنه وللرجال على الأفعال سيماء

الأم : هكذا آعتبر الدين الإسلامي المسلمين جسداً واحداً ، ولم يعترف بهم إلاَّ أمّة واحدة : ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (الآية ٥٢ سورة المؤمنون) .

البنت : هذه المعاني تمثَّل بها الأوائل ، وبها نجحوا في أداء رسالتهم ،

وقد فتحوا (أي المسلمون) مشارق الأرض ومغاربها ، ودانت لهم الدنيا بالطاعة . وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب وشعوب العجم تحت راية الإسلام ، تقاتل مخالفيه ، وتنشر تعاليمه النيِّرة ، وتثبّت قواعد التوحيد ، وتنشر العدل والمساواة بين الناس ، ما كان يمكن أن تفعل هذه الأعاجيب في ذلك الظرف القصير لو استمرت على عصبيتها الجاهلية ، تفخر القبائل على القبائل ، والشعوب على الشعوب ...» .

الابن : ليت الشعوب الإسلامية تفقه هذا المعنى ، وتعي هذه الدروس ، وترجع إلى بعضها البعض ، عساها تتخلّص من أعدائها الكثيرين ، الذين استغلّوا وصمة التفرق بينهم ، وضرب بعضهم البعض ؛ بسبب العصبية الجاهلية ، فمزقوا شملهم أكثر ، وزادوا في الإبعاد بينهم ، وتقسيم أراضيهم ، وما يزالون !!

البنت لله در شاعر الإسلام محمد إقبال الذي نادى العرب والمسلمين :

كل شعب قام يبغي نهضة وأرى بنيانكم منهدما
في قديم الدهر كنتم أمة لهف نفسي كيف صرتم أمما

الأب : حقاً إنه لعار وعيب كبير أن يفترق المسلمون ، ودينهم دين الوحدة ، وإنه لحسرة أن يتكالب الأعداء على بلاد المسلمين ، ويجدون المساعدة من أهلها ؛ بسبب ما هم فيه

من العداوة والتنافر .

البنت : وليس المنقذ من هذه الوصمة والمخرج من هذا الهاوية ، والعاصم من هذا العار سوى التقوى ، كما قال الله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وكما جاء في آية المؤمنون .. ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ .

الابن : إن لواء التقوى الذي رفعه الله في هذه المواقف ينقذ البشرية من العصبية للجنس والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية لنبيت ، وكلها من الجاهلية وإليها ، وكلها جاهلية عارية من الإسلام .

البنت : وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة ، راية الله ، لا راية الوطنية ، ولا راية القومية ، ولا راية البيت ، ولا راية الجنس ، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام .

الأم : ويختم الله تعالى هذه التوجيهات ، فيقرر أنه عليم بأحوال الناس وأعمالهم ، خبير بنواياهم ، فلا نعبث مع الله ، ولا نحاول مخادعته ، لأن الذين يخادعون الله إنما يخادعون أنفسهم وهم لا يشعرون .

الأب : شكراً لكم على هذا الاستطراد ، وعلى هذه المعلومات ، اسمحوا لي أن أرجع إلى عبارة ﴿لتعارفوا﴾ تذكرت فيها

مسائل كنت سمعتها من أستاذنا الشيخ بيوض ـــ رحمه الله ـــ لابد من الإشارة إليها ؛ لأنها من مسائل الدين التي تجب معرفتها . وكثير من الحقوق ضاعت ، بسبب جهلها أو إهمالها .

البنت : أفدنا جزاك الله عنا كل خير .

الأب : التعارف ليس معناه التآلف فقط ، بل يعني أيضاً أنه لابد من أن يعرف بعضنا البعض . نعرف آباءنا وأمهاتنا ، وأجدادنا وأخوتنا ، وأعمامنا وأخوالنا وجيراننا ...

الابن : فعلاً إن معرفة الأنساب تبدو ناقصة اليوم كثيراً ، فكثير من شباب اليوم لا يعرفون حتى أقرب الناس إليهم .

الأم : هذا ضعف في الدين ، وتقصير في الواجب .

الأب : فللإخوة على بعضهم حقوق كلما اتصلت الدماء وٱقتربت الأرحام ، ٱنظروا حتى في الإنذار والدعوة والنصح والإرشاد فرض الله تعالى على القريب القيام بهذا الواجب نحو قريبه . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الآية ٢١٤ سورة الشعراء) القول موجه للنبي ﷺ ولكن الأمر يعمّ كل المسلمين .

البنت : إذن هناك واجبات علينا ضيّعناها ، بسبب عدم قيامنا بواجب التعارف على أتم وجه .

الأم : هناك مسؤولية كبيرة على الآباء والأمهات ، الذين لا

يقومون بواجب تعريف الأبناء بأقاربهم وذوي أرحامهم ، وإعلامهم بما يترتب على ذلك من حقوق .

الأب : فآنتبهوا أيها الأبناء ، وقوموا بواجبكم في التعارف ومعرفة أنسابكم ، وآنقلوا ذلك إلى إخوانكم الشباب ، وحذّروهم من الفكرة التي تقول : لا حاجة للإنسان من معرفة قريبه أو رحمه ، .

الأم : بارك الله فيكم جميعاً ، نفعنا الله بما تعلّمنا ، وعلّمنا ما ينفعنا ، وإلى اللقاء بحول الله .. والسلام عليكم ورحمة الله .

الابن : موضوعنا اليوم هو حول الإيمان ، وهو الموضوع الذي ختمت به السورة ، وقد توّج الله تعالى بها التوجيهات التي قدمها إلينا ، وبيّن أنه الثمرة التي يحصل عليها المتقيد بهذه الإرشادات .

البنت : يعني ذلك أن المؤمن الحقيقي هو الذي يتمكن من الإلتزام بهذه الأوامر ، ويجاهد في سبيل البقاء في دائرة الإيمان ، وهي درجة لا تنال إلا بالعمل الدؤوب المستمر .

الأب : لهذه الحقيقة فإن الله في ختام هذه السورة يوضح صفة الإيمان ، حتى يتبين الناس حقيقة ما يقومون به من أعمال ، ويعرفوا هل هي في صميم الإيمان أم لا ، وما هي درجة إيمانهم بربهم .

الابن : إذن نقرأ الآيات التي تناولت الموضوع :

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

الأم : خذوا كؤوس الشاي أولاً ثم آستأنفوا حديثكم ..

البنت : شكراً لك أماه ، هل لك أبي أن تبين لنا مناسبة نزول هاتين الآيتين ، فإن المناسبة تضيء لنا بعض جوانب الموضوع ؟؟

الأب : حسناً ، ذكر الزمخشري في الكشَّاف ، قال ابن عباس : إن نفراً من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة ، فأظهروا الشهادة ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وجئناك بالأثقال والذراري ، يريدون الصدقة ، ويمنون عليه ﷺ ، فنزلت الآيتان الكريمتان

الابن : أفهم أن المعنى الذي ذكره الله تعالى هو الإستسلام لرسول الله ﷺ والإذعان له ، ولو كان تصرف هؤلاء هو تصرف الأعراب الذين يكون في طبعهم غلظة وجفاف ، بما صنعوه في المدينة من فساد ، وبما أظهروه من مَنٍّ على النبي ﷺ .

الأم : هل معنى ذلك أن إسلامهم كان ظاهرياً فقط ، وربما كانوا منافقين ؟

الأب : لا يمكن أن نفهم من هذا التعبير أنهم منافقون خائنون ، إنما نستطيع أن نقول : إن إسلام هؤلاء يفتقر ويحتاج إلى درجة أعلى وهي الإيمان .

البنت : إذن فما معنى قوله تعالى : ﴿لَمْ تؤمنوا﴾ ﴿وَلمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ ما الفرق بين لَمْ ، وَلمَّا في هذين الاستعمالين ؟

الأب : أحسنت في هذا السؤال الوجيه ، وهو ما يتيح لي فرصة

توضيح الإشكالية التي عرضتها أمك من قبل .

فالله تعالى أقرَّ أن هؤلاء الأعراب لم يؤمنوا كما كانوا يدّعون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لن يكونوا مؤمنين . بل يتوقع منهم الإيمان الحقيقي ، أفادت ذلك لفظة ﴿لمَّا﴾ لأنها تفيد نفي حصول الشيء في الوقت الحاضر ، وتفيد حدوثه فيما بعد وما يأتي من الزمان ، ولا تنفيه نفياً مطلقاً . ومن هنا يستبعد عن هؤلاء الأعراب النفاق ، بل ينتظر منهم الإيمان الكامل .

الابن : شكراً لك يا أبي على هذا التوضيح ، ويمكن أن أفهم أن ذلك يفيد أن إيمان المرء قابل للزيادة .

الأم : هذا ما نلحظه في أنفسنا ، فإن الواحد منا كلما تقدم في الإخلاص في العبادة في شتى أنواعها شعر بحلاوة الإيمان ، ورسوخه في قلبه أكثر فأكثر .

الأب : هذا ما يحملنا على شمول أبنائنا ــ الذين ماتزال عقولهم غير ناضجة وإيمانهم ضعيفاً ــ بالرعاية الحسنة ، والتوجيه السديد فلا نغلظ عليهم في القول ، ولا نقسو عليهم في المعاملة ، حتى ننمي فيهم هذا الإيمان ، ولا نجابههم بما يجرح كرامتهم حين يخطئون ، حتى لا نخسرهم . ومثل هذا يجب أن نسلكه مع حديثي العهد بالإسلام .

البنت : إذن فالإنسان قد يسلم أولاً ويستسلم ويذعن ، ثم يبدأ

الإيمان يدخل قلبه شيئاً فشيئاً ، حتى يصل إلى درجة يقال له إنك مؤمن إيماناً حقيقياً أو كاملاً ، لكن دون الوصول إلى ذلك وقت طويل ومجاهدة وعمل كبير .

لهذا عبّر الله تعالى عن المؤمنين الحقيقيين أنهم هم الذين لم يرتابوا ، أي لم يشكُّوا في شيء جاء من عند الله ، اطمأنت نفوسهم وسكن الإيمان قلوبهم ، فأقدموا على الأعمال الصالحة بقوة .

الابن : ومع ذلك فإن الله يقبل الأعمال الصالحة التي تصدر من المؤمن ولو كان لم يصل بعد إلى درجة المؤمن إيماناً كاملاً تأليفاً له ، وتدريباً على فعل الخير وإتيان الصالحات من الأعمال .

البنت : وقد بيّن ذلك للأعراب الذين أسلموا ولمَّا يؤمنوا أن أعمالهم الصالحة التي يقومون بها لا تضيع ، فهي مسجلة ، ويجزون عليها الجزاء الأوفى ، بشرط أن يبقوا على الطاعة والاستسلام لله .

الأم : ما أعدلك يارب مع خلقك ، وما أرحمك بهم ، تأخذهم بالرفق ، وتسهل لهم سبل الهداية ، وتقبل منهم القليل مما يقدمونه إليك ، وتعفو عن كثير مما فيه من نقص .

الأب : بل إن الله تعالى يغفر تقصيرنا في حقّه ، ويرحمنا ويجازينا حسب نياتنا ، حتى ولو كانت أعمالنا قليلة ، وجهادنا

ضعيفاً في حقه .

البنت : كلّ ما رأيناه مفيد ينفعنا في سلوكنا ، وفي عبادتنا ، لكننا لم نتعرف بعد على حقيقة الإيمان .

الابن : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

فالمؤمن الحقيقي الذي يرتقي من درجة الإسلام إلى درجة الإيمان هو الذي لايشكّ في ربه ، ولا فيما يحدث في هذه الحياة الدنيا من أمور ، بل يسلم وجهه لله ، ويفوّض أمره كله له ، ويرضى بكل ما قسم الله وقضاه وقدره ، ثم يجتهد في تجسيد هذا الإيمان في الواقع بالجهاد بالمال والنفس ، ويكون بذلك هو الصادق فيما يدعيه بأنه مؤمن مستقيم .

الأب : ربما تلحظون معنىً مهماً متولداً من لفظة «ثمّ» في قوله تعالى ﴿الذين آمنوا ... ثمّ لم يرتابوا﴾ فثمّ تدل على الترتيب مع التراخي وهو ما يفيد أن الإنسان يؤمن ثم يحتاج إلى وقت ليرسخ إيمانه ، بعد أن يمرّ بمراحل يتعهده فيها بالنموّ والزيادة .

البنت : يفهم من هذا أن المؤمن قد تعترض حياته أسباب وفتن من شياطين الإنس والجنّ ، ومحن ورزايا من سجن وتعذيب وفقر وغنى ومرض فيمتحن في إيمانه ، ليعلم درجة يقينه ورضاه بما أراد الله تعالى .

الأب : وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (الآيات ١ ، ٢ ، ٣ سورة العنكبوت) .

الابن : إذن على المؤمن أن يعرف أن الحياة امتحان ، فلا يستسلم لحوادث الزمان ، ولا يترك إيمانه يضعف ، بل عليه أن يسعفه بما يقويه وينمِّيه . وليس كالقرآن مسعفاً وشافياً ، مدارسته والتدبّر في آياته ، ثم مجاهدة النفس في الله كفيلة بالهداية إلى سبل تقوية الإيمان .

الأم : وعلى المجتمع أن لا يقسو على الخاطئين ، بل عليه تصليح أخطائهم وإزالة ما يسبب لهم ضعفاً في الإيمان . حتى يسود الأمن وطمأنينة النفس ، وهو ما يعين على الإيمان والتصديق ، والإذعان إلى الحق ، ومن ثمَّ يدعو إلى تقوى الله وخشيته .

الابن : في هذا المعنى جاء : «أن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع ، والتي تثبت فلاَ تضطرب ، وتثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة موصولة ، هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق وأخطار الرحلة لتعزم أمرها ، وتحتسب وتستقيم ، ولا ترتاب

عندما يدلهمّ الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها العواصف والرياح» .

الأب : وقد أشار الله تعالى في موضع آخر إلى صفات المؤمنين الحقيقة . وهي صفات يمكن اعتبارها منميات للإيمان ، مقويات له . ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ سورة الأنفال) .

الابن : هذه الصفات هي : وجل القلب عند ذكر الله عز وجلّ ، إزدياد الإيمان واليقين عندما تتلى آيات الله ، الاعتماد على الله في الوصول إلى تحقيق أية غاية ، إقامة الصلاة ، الإنفاق في سبيل الله .

البنت : هذه صفات المؤمنين الذين ينالون درجات عند الله تعالى كبيرة ، ومغفرة ورزقاً كريماً ، وهي توجيهات ربّانية لمن أراد تقوية إيمانه وتزكيته ، إن دخله ما يشينهُ ، وهي أسباب للوصول إلى اليقين ، والظفر بالإيمان الحقيقي .

الأب : فلتعلموا أن هذه الآيات تخاطب الناس كافة في مختلف الأزمنة . هناك كثير من الناس في قلوبهم شكوك وريب ، قد يكون مصدرها الثقافة التي تصْبغ بالصبغة الدينية ،

والتربية التي لم يراع فيها جانب الدين والشريعة ، وقد يكون مصدرها الفتن التي تصيب من لم يرسخ الإيمان في قلبه .

وقد صوّر الله تعالى ذلك في قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ .. ﴾ (الآية ١٠ سورة العنكبوت) .

فلنحذر هذه المزالق ، ولنحاول الاتصاف بما ذكره الله حتى نكون من الصادقين .

الأم : إن العاصم من هذه المزالق والموصل إلى مغفرة الله والرزق الكريم هو اعتقاد المسلم أن الإيمان عقيدة وقول وعمل ، وأن نقص أحد هذه الثلاثة يخدش في إيمانه ويعرّضه للهلاك .

وفقّنا الله إلى ما يحبه ويرضاه .. والسلام عليكم ورحمة الله .

** ** **

الليلة الرابعة عشرة

الأب : تتابع الآيات الحديث عن إيمان الأعراب ، تعاتبهم هذه المرّة : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

الابن : لِمَ هذا العتاب يا أبتي ؟

الأب : إنه لما سمع وفد بني أسد ــ الذين وفدوا على النبي ﷺ ــ قول الله تعالى لهم أن الإيمان لم يدخل قلوبهم ، فهم مسلمون فقط ، جاؤوا الرسول ﷺ يحلفون له أنهم مؤمنون صادقون ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

البنت : فالله تعالى يوبّخ هؤلاء الذين يتطاولون على الله ، فيظنون أن الله تعالى لا يعلم عن إيمانهم ، وعن الدين الذي هم عليه ، بينما علمه يحيط بكل شيء : علم السماوات والأرض وما فيهما .

الأب : ومما يدل على نقص في إيمانهم ، وأنهم لم يدركوا حقيقة الإيمان بعد مَنِّهِمْ على الرسول بإسلامهم . فقد قالوا للرسول ﷺ : جئناك مؤمنين من غير قتال بينما غيرنا قاتلك

وحاربك ، جاؤوا يفتخرون بهذه المزية ، وربما كانوا يطمعون أن يعطيهم الرسول شيئاً مما يغنمه من فيء ، وما يتوفر لديه من أموال .

البنت : والله حرّم على المؤمنين المنّ ، وجعله مبطلاً للصدقات ولكل الأعمال ؛ لأنّه مؤذٍ للممنون عليه ، ومشعر بالرياء ، ومفقد للإخلاص ، الذي هو سرّ العبادة وروحها .

الأب : ويبيّن للأعراب من هو أحق بالمنّ ، إنه هو عزّ وجلّ ، والخطاب موجه إلى كل المؤمنين في كل زمان ومكان .

الابن : نعم المنَّة لله تعالى الذي هداهم للإيمان ، لأن نعمة الإيمان أغلى من كل نعمة ، فإن كنتم صادقين في إيمانكم مخلصين فيه ، مقدّرين الفضل الذي أنتم فيه اعترفوا بذلك .

البنت : المنّ مرض خطير وخُلق سيء ؛ لأنه إذا أصاب المرء أصابه في روحه وجوهره . فهو مورث للعجب والرياء والنفاق ، ويفرز أغرب النتائج ويؤدي إلى قلب الموازين ، ويوهم الإنسان أن من المنّة ترك القبيح كما قال الشاعر مجسداً هذا الخلق السيء :

إنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

الابن : ما أسخف هذا التفكير . إنه يدل على دناءة وضعة في النفس . فإن الإنسان بدل أن يتسابق إلى فعل الخيرات ولا يمنّ على ذلك فإنه يفتخر أنه لم يظلم ، ولم يسب ولم يشتم

ولم يعتد ... ويعتبر ذلك منّة وفضلاً .

الأب : لذا حارب الله تعالى هذا الخُلق ، وبيّن أن المنّة له ، وأنه هو المتفضل على الناس .

وركزّ على منّة الإيمان لأنها الضامنة لحياة السعادة والهناء ، وعلّم الإنسان أن يقول الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الأم : هل لك أيها الزوج العزيز ، أن تبيّن لنا حقيقة هذه المنّة ، منّة الإيمان ، بعد أن نتناول الشاي فهو جاهز ؟!

الأب : شكراً أيتها الزوجة الصالحة !

إن نعم الله كثيرة لا تحصى ، وأعظمها نعمة الإيمان التي يهدي إليها الإنسان . كل ما في الوجود يدل على فضل الله علينا ، فكيف نمنّ عليه بعد ذلك بأننا آمنا به . بئس العمل المنّ على الله . فمن أنعم الله تعالى عليه بأن خلقه ومكّن له الصحّة والمال ، ويسّر له فرص التمتع بملذات الدنيا كلها ، وسلب منه الإيمان ، ثم حشره في جهنّم وبئس المصير ، فماذا تكون قد نفعته تلك النعم !

الابن : ولهذا قال تعالى في الكفار : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾

(الآيات ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ سورة الشعراء) .

الأب : قال الله تعالى ذلك ليصبِّر المؤمنين الذين ربما يضيقون ذرعاً

ـــ في حالة ضعف الإيمان أو مرورهم بحالات نفسية ما ـــ بما يشاهدونه من توفر النعم للكفار والمشركين الذي هيئت لهم كل أسباب العيش ـــ ظاهرياً ـــ في الدنيا ، بينما هم يرون أنفسهم محرومين من ذلك رغم إيمانهم وكفر أولئك . وبيّن لهم أنه منح لهم ما يضمن لهم السعادة الأبدية وهو الإيمان .

ألا يستحق الله تعالى الشكر على ذلك ، وينفرد بالمنّ على عباده ؟!

الأم : حقيقة هذه منّة كبيرة ، ونعمة عظمى ، هدانا الله تعالى لتقديرها ، وهدى شباب الإسلام لإدراكها ، ليزدادوا إيماناً بعد إيمان وليخلصوا العبادة لله .

البنت : بل إن الكافر سيزداد حسرة وكمداً وندماً ، حين يقف على حافة جهنّم يوم القيامة ويستعد للعذاب الدائم المقيم ، ويتذكر النعيم والرفاهية التي كان يعيش فيها ، والتي سلبته إيمانه فنسي الله ، واستغرق في الاستكبار في الأرض والفسوق فيها . ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (الآية ٢٠ سورة الأحقاف) .

الأم : بينما يقف المؤمن على ما أعده الله له من السعادة الأبدية ،

وما حرم به نفسه من ملذّات الدنيا بوازع الإيمان وبسببه ، فيخرج ويتذكّر منّة الله تعالى عليه في الدنيا التي كانت سبب سعادته الدائمة في الآخرة .

الأب : هكذا يجب أن يستشعر المؤمن هذه المنّة في الدنيا حتى لا يضيق بما يصيبه فيها من منغّصات . ونحن دائماً ندعو ونقول اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا . نطلب ذلك لأننا لا نملك من أمرنا شيئاً إلا أن يهدينا الله تعالى إلى سواء الصراط . أليست هذه منّة يا قوم ؟

الابن : إن كتب السير والتاريخ مليئة بقصص المبتلين ، الذين صبروا على الأذى والمرض ، وما نزل بهم ، وذلك بفضل إيمانهم . وفي قصص الأنبياء الكثير من هذه الأمثلة التي ورد فيها عبر ودروس ، للإيمان واليقين في الله .

البنت : فسيدنا أيوب عليه السلام ــ مثلاً ــ ابتُليَ بلاءً شديداً في جسمه لكنه صبر وبقي معتقداً أن هذا آمتحان من الله تعالى ، فلم يضجر لأنه وهب نعمة الإيمان . شفاه الله تعالى بعد ذلك ، وجعل ثوابه كثيراً وجزاءه عظيماً ، لصبره وإيمانه .

الأب : وسيدنا يونس الذي كان يسبّح في بطن الحوت ، لولا أنه كان من المؤمنين المسبِّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . إذن لم ينقذه من ظلمة الحوت إلاَّ إيمانه .. فلنعتبر .

الأم : آنظروا إلى نعمة الإيمان فإنها تنقذ الإنسان حتى في الدنيا ، فضلاً عن الأجر الكبير الذي يناله في الآخرة . أية نعمة أكبر من هذه . ألا يحق لله تعالى أن يمنّ على عباده ؟!

الابن : أصيب رجل بمرض شديد ، فمر عليه ناس سألوه عن حاله ، فشكر الله تعالى على نعمه عليه ، فقالوا : أية نعمة أنت عليها بعد هذه الشدة ، أجاب : الحمد لله الذي أعطاني قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً ، وإني لأرجو برهما وذخرهما عند الله .

البنت : إن المصائب قد تحيط بالإنسان المؤمن ، وقد تسلبه كل شيء ، وقد يفارق الحياة بعد أن يذهب عنه بصره وسمعه وصحته . لكن يبقى له إيمانه الذي يأخذه معه ، ليبوئه مقعد صدق عند مليك مقتدر . إذن ﴿بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ .

الأب : فالإنسان ينتقل من صادق حين يعترف بمنة الله تعالى عليه إلى الصادق حين يرسخ الإيمان في قلبه ، فتأمّلوا في تعبير القرآن ﴿إن كنتم صادقين ، وأولئك هم الصادقون﴾ .

الابن : إن نعمة الإيمان على المؤمن ، في توجيه حياته ، وصبغها بصبغة الطمأنينة تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة ، وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً ،

البنت : من هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة

الأب : الإيمان الذي يحقق كل هذه الأهداف ، ويبعث الأمن والطمأنينة في القلب ويجنب الإنسان العقد النفسية ، ويوضح الرؤية له في حياته ، ويزيل عنه ما يعكِّر صفو حياته ، ويقرِّبه من ربه ويقوده إلى النعيم المقيم . ألا يستحق صاحبه الشكر ، ويحق له المنّ على عباده ؟! ﴿بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ .

الابن : حقاً إن الله تعالى يستحق الشكر ، ويحق له أن يمنَّ على من أنعم عليهم بما لا يحصيه إلاَّ هو . أريد منكم أبتاه تعليقكم على ما جاء في خاتمة السورة .

الأب : ختم الله تعالى السورة بما يشعرنا به بأنه محيط علما بكل شيء ، وبما نقوم به من أعمال لا تخفى عنه خافية ، فقد تنطق ألسنتنا بما ليس في قلوبنا . وبخاصة في قضية الإيمان ، فندّعي الإسلام ولا نعتقده في قلوبنا كما وصفه الله وحدَّد حقيقته ، فلنحذر ﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ .

الأم : يضيف الشيخ بيوض : إن في الآية وعداً ووعيداً ، يعد المؤمنين ويبشرهم بأن أعمالهم الخيرية لا تذهب سدىً ، بل يجزون عليها . ويوعد العصاة والكفرة ، وينذرهم بأن ليس شيء من أعمالهم القبيحة تخفى على الله .

الأب : فالمسلم الذي يتيقن أن الله بصير بما يعمل ، مطّلع على كل ما يقوم به ، رقيب له في كل زمان ومكان . فإنه يفكر كثيراً قبل أن يقدم على أية حركة يقوم بها ، مهما تكن . وهو ما يمنعه من التهاون في أوامر الله . أما من نزعت من قلبه رقابة الله ، وسلب منه الإيمان ، فإنه يتساهل في أوامر الله ، ولا يتورع في انتهاك حرماته . ألا يكون بعد ذلك الإيمان نعمة من الله ومنَّة ؟!

أيها الأبناء ، هكذا منَّ الله تعالى علينا بتوضيح بعض المعاني في سورة الحجرات ، فله الحمد كله والشكر كله .

غداً إن شاء الله نخصصه لتلخيص ما تناولناه في الليالي الأربع عشرة .

الأم : إذن فلنهيء أنفسنا للإمتحان والإختبار . وفقنا الله تعالى فيه . إلى اللقاء بحول الله .. والسلام عليكم ورحمة الله .

** ** **

الأم : أعددت لكم طبقاً خاصاً من الحلوى ، وآعتنيت عناية خاصة بإعداد الشاي لهذه الليلة ، لأن اليوم يوم الإمتحان ، فيه يكرم المرء أو يهان .

الابن : شكراً لك أمّاه على هذه العناية ، وهذا الاهتمام ، لم تكوني ــ أبداً ــ مقصرة في حقنا في يوم من الأيام ، وفقنا الله لرد بعض جميلك علينا .

البنت : أحسنت ــ والله ــ صنعاً أماه ، وأسديت معروفاً ، إنا نرجو أن نوفق جميعاً في آجتياز عقبة الإمتحان بأمان ، فنكرم ولا نهان ... بوجودك معنا ، وعطفك علينا وبدعواتك الصالحة . وبفضل إخلاص أبينا في تبليغنا هذه المعاني ، وتفهيمنا إياها لن نخفق إن شاء الله .

الأب : شكراً لأمكم على هذه الرعاية ، وشكراً لكم على هذا الاهتمام ، وعلى هذه الثقة في أنفسكم ، والثقة أساس النجاح في الحياة ، إنها نابعة من إيمانكم ، ومن آجتهادكم في التلقي . وهذا هو أول نتاج وأول ثمرة من ثمرات هذه اللقاءات والحمد لله .

الابن : تفضل أبي ، اسألنا ونحن نحاول الإجابة .

الأب : ما هي أهم قضية أشارت إليها السورة ؟

البنت : إنها قضية الإيمان يا أبي . بداية السورة كانت بالإيمان ونهايتها كانت حديثاً عن الإيمان .

الأب : كيف ذلك ؟

الابن : آفتتح الله تعالى السورة بالنداء المحبوب إلى النفس ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ ، وأنهاها بالتأكيد على نعمة الإيمان على العبد ، ثمّ تسجيل أحقّية المنّ على عباده في ذلك .

الأم : وما بينهما كان الحديث عن الإيمان ، في كل مرة يذكّر المسلمين بأنهم مؤمنون ، يجب أن يتجنبوا ما يخدش هذا الإيمان .. مع بيان حقيقة الإيمان ، وتقديم وصف للمؤمنين الحقيقيين .

الأب : وكأنَّ الله يتعهد هذا الإيمان بالرعاية والعناية ، ويشير إلى ما يطهّر مظاهر المسلمين ومخابرهم ، ليظل المجتمع الإسلامي نظيفاً يسوده الأمن والطمأنينة .

البنت : وكأنَّ الله تعالى يؤكد على صفة الإيمان بتركيزه على التقوى والخشية ومخافة الله ومراقبته .

الابن : كما نبّه وركّز على الطاعة والإمتثال لأوامر الله ورسوله وأولي الأمر الذين يراعون حقوق الله ، وهذا من صميم الإيمان ، وهذا حذّر من التقدم بين يديه ورسوله ﷺ .

الأم : ونبهت الآيات المسلم إلى تعهد إيمانه بالنماء ، وذلك بالإكثار من الطاعات والعبادة بمفهومها الواسع ، وبخاصة بالنسبة

للشخص البالغ سنّ التكليف وحديث العهد بأداء الفرائض ، على أوليائه رعايته والأخذ بيده في هذا السبيل حتى يرسخ إيمانه بالتدريج .

الأب : هذا السؤال الأول قد نجحتم فيه ، فإليكم السؤال الثاني ، كيف عالج الله تعالى مسألة وحدة المسلمين ؟

البنت : ركّزت السورة على وحدة المسلمين تركيزاً كبيراً ونهت عن آقتراف ما يسهم في النيل من هذه الوحدة .

الابن : حذرت من الأخلاق التي تمس هذه اللحمة ، وتخلخل كيان المجتمع سواء ما كان منه ظاهراً أم خفياً .

الأم : بل دعت إلى الإسراع في الإصلاح والمصالحة ، كلما حدث ما ينال هذه الوحدة وبيّنت أن ذلك واجب المسلمين . وكل إخلال بهذا الفرض اعتبرته خطأ يرتكب في حق التقوى والإيمان ، ولذلك ركزت كثيراً على الإخوة الإسلامية .

الابن : والسورة حرصت كثيراً أيضاً على حفظ كرامة المسلم وحرمته ، وصيانة حقوقه وحريته ، سعياك إلى بناء المجتمع الإسلامي الفاضل والمتماسك .

البنت : ما ورد في السورة توجيهات تربوية سامية لانشاء الجماعة الإسلامية على أسس صحيحة ، إنها العناية الإلهية .

الأب : تمثل هذا في تنبيه المسلمين إلى أمور كثيرة ، منها إعانة الشباب على السير في الطريق السليم المستقيم ، والأخذ بيده

بالتي هي أحسن ، ومساعدة المخطئين على الأوبة والعودة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

الأم : لهذا فإن السورة راعت النمو الطبيعي للمجتمع أو للجماعة الإسلامية في توجيهاتها ، وفي تسلسل تقديم الأوامر والنواهي إليها .

الأب : شكراً لكم على هذه الإجابات الموفقة ، بقي لكم شيء لم تشيروا إليه في هذا الموضوع .

البنت : دعنا نفكر قليلاً !

الأب : طال الوقت ، لا بأس أن أذكركم به أنا مع كل التوجيهات التي قدمتها السورة ، وتحذيراتا من آرتكاب ما نهى الله عنه . فإنها كانت تشير إلى رحمة الله الواسعة لعباده المخطئين ، وإلى بابه المفتوح لمن أراد العودة إليه .

الابن : نسينا ــ والله ــ هذه الملاحظة المهمة ، وهذه النعمة من الله على عباده فإن ذلك وسيلة من وسائل تأليف القلوب وتقريبها من الله وعدم تركها سادرة في غيّها .

الأب : شكراً ، وما هي الجوانب الأخرى التي تضمنتها السورة أيضاً ؟؟

البنت : تحدثت عن الآداب العامة التي يجب أن يتحلّى بها المسلم : آداب مع الله تعالى ورسوله ﷺ ، ومع أخيه المسلم ، وأخيه في الإنسانية .

الابن : السورة تضمّنت قواعد أساسية وركائز صلبة لبناء المجتمع ، ولابد من معرفتها ، والعمل بها حتى يسود الأمن والاستقرار والوئام حياة المؤمنين .

الأب : ما رأيكم في هذه الطريقة ، وهذه السُّنّة في إحياء الليالي بسمر وأحاديث مفيدة تعليمية تكوينية ؟

الأم : والله إنها لطريقة جيدة ومهمة وضرورية للتكوّن والتثقيف والتفقه . جزاك الله تعالى خير الجزاء في تفكيرك في إحياء هذه السُّنّة وهذه العادة الحسنة ، التي عرفت عن أجدادنا ، وعن الأسر الإسلامية الحريصة على التربية والبناء .

الابن : لقد استفدنا كثيراً ، وتعلمنا كثيراً ، والله إني لمتحسّر جد التحسر على الأوقات التي قضيتها سدى دون فائدة ، غفر الله لنا ما ضيّعناه من وقت فيما لا يغني ، رحم الله در القائل :

إذا مر بي يوم ولم أتخذ يدا ولم أستفد علما فما ذاك من عمري

البنت : وأنا بدوري لم أجد العبارة المفصحة عما في قلبي من تقدير لهذه اليد التي قدمتها إلينا يا أبي ، وماأفدتنا وأتحفتنا به من فقه وعلم وأدب في هذه الليالي الغرّاء ، فإن ما في الآخرة من الجزاء الأوفى خير لك وأبقى مما نقدمه لك في الأولى .

الأب : الحمد لله على هذا التوفيق ، وعلى هذا النجاح في مهمتي أباً مربياً مسؤولاً في التوجيه والإرشاد والتوعية والتربية :

(ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتى إني تبت إليك وإني من المسلمين) .

الابن : أبي آجمعنا من حين إلى حين حول هذه الأحاديث ، وحول هذا السمر المثمر المفيد .

البنت : لا تباعد بين أسمارنا ولقاءاتنا أبتاه ، حتى لا تصدأ قلوبنا ، ولا تصيبنا الغفلة .

الأب : بورك فيكما من ولدين بارين نجيبين ، لقد أعجبت بكما كثيراً ، وبمناقشاتكما ومحاوراتكما ، وحسن مطالعاتكما ، هكذا فليكن التلميذ المجتهد والابن النجيب .

وهكذا يجب أن يكون الأولياء تجاه أبنائهم ، عناية وتربية وتعليما . ومثل هذا يجب أن يكون بين المسلم عامراً بذكر الله تعالى . يجب أن لا نحوّل بيوتنا مقابر لا يذكر فيها اسم الله ، ولا يقرأ فيها القرآن ، ولا يدرس ، فان البيت الذي لا يتلى فيه القرآن يسكنه الشيطان .

الأم : اللهم أكرمنا بنور العلم والفهم ، وأخرجنا من ظلمات الجهل والوهم ، وافتح علينا حكمتك ويسّر لنا من خزائن علمك . ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ .

** ** **

رقم الإيداع : ١٥٢ /٩٢